لِغتانِ في بيتٍ واحد

عن الحب، والاختلاف، وما يورِّثه البيت فينا



الكاتبة : إيمان القيسي

لغتان في بيتٍ واحد

عن الحب، والاختلاف، وما يورِّثه البيت فينا

لغتان في بيتٍ واحد

عن الحب، والاختلاف، وما يورِّثه البيت فينا

استكشاف أدبي ونفسي للحب والزواج والطفولة

إيمان القيسي

حقوق النشر

© 2026 إيمان القيسي. جميع الحقوق محفوظة.

الطبعة الأولى، 2026.

هذا الكتاب عملٌ أدبي نفسي، وشخصياته وأحداثه متخيَّلة. وما يرد فيه من نظريات نفسية معروضٌ بأسلوب مبسِّط للقارئ العام، ولا يغني عن استشارة مختصّ.

إهداء

إلى كل طفلٍ جلس في ركنٍ من البيت يُصغي إلى الصمت ويحاول أن يفهمه.

وإلى كل أمٍّ وأبٍ أحبّا أبناءهما بكل ما يملكان، ثم تعثّرا في أن يقولا ذلك لبعضهما بلغةٍ يفهمها الآخر.

وإلى كل من قرّر، بعد طول تأمّل، أن يتعلّم لغة من يُحب.

المحتويات

المقدمة: البيت الذي بدا عاديًّا 1
الفصل الأول: ما نتعلّمه قبل أن نفهم الحب 4
الفصل الثاني: امرأة آمنت بالأفعال 8
الفصل الثالث: رجل احتاج إلى أن يسمع 11
الفصل الرابع: تعريفان مختلفان للحب 14
الفصل الخامس: الأشياء الصغيرة التي تصبح كبيرة 18
الفصل السادس: اليوم الذي صار فيه الطلاق احتمالًا 21
الفصل السابع: المصالحة ليست علاجًا 28
الفصل الثامن: أطفال يتعلمون دون أن يُعلَّموا 35
الفصل التاسع: ثلاثة أطفال وثلاثة فهوم للحب 41
الفصل العاشر: العلاقات التي نحملها إلى سن الرشد 52
الفصل الحادي عشر: لم يكن أحدهما عدوًّا 58
الفصل الثاني عشر: تعلّم ترجمة الحب 65
الخاتمة: ما لا ينبغي أن يُضطر الأطفال إلى فهمه 70

المقدمة

البيت الذي بدا عاديًّا

لم يكن في بيت فاطمة وكمال ما يستوقف الناظر. بابٌ يُفتح قبل السابعة صباحًا، وحقائب مدرسية متراصّة عند المدخل، ورائحة قهوة تسبق أصحابها إلى المطبخ، وجاراتٌ يقلن، كلما سُئلن عن هذه الأسرة، إنها أسرة مستقرة. ولم يكن في هذا الوصف شيء من المبالغة. فالأب يعود كل مساء في موعده تقريبًا، والأم لا تنسى موعد طبيب ولا قسط مدرسة ولا عيد ميلاد، والأبناء الثلاثة ينجحون في امتحاناتهم ويُحسنون السلام على الكبار، ولم يرتفع في ذلك البيت صوتٌ على أحد أمام الغرباء قط.

غير أنّ في البيت شيئًا لا تلتقطه عيون الجيران، ولا تُظهره صور المناسبات العائلية. كانت فيه لغتان. الأولى تتكلم بالأفعال: طعامٌ يُطهى قبل أن يُطلب، وفاتورةٌ تُسدَّد في موعدها، وليلةٌ تُقضى إلى جانب سرير طفلٍ محموم دون أن تُنطق كلمة واحدة. والثانية تتكلم بالكلمات: مجاملةٌ تُضحك الجالسين، وسؤالٌ عن الحال يُراد به أكثر من الحال، وجملةٌ قصيرة تقول للآخر إنه مهم وإن حضوره مرئيّ. وكان كل واحد من الزوجين يُتقن إحدى اللغتين ويفهم الأخرى بعسر، وكلاهما على يقين من أنه يقول ما يكفي.

من هذه الملاحظة ينطلق الكتاب، ومن سؤال واحد يتفرّع عنها: هل يمكن لشخصين أن يحبّ أحدهما الآخر حقًّا، ثم يعجزا مع ذلك عن أن يشعر كلٌّ منهما بأنه محبوب؟ والجواب عن هذا السؤال ليس يسيرًا، لكنه يبدأ بتفريقٍ لا غنى عنه. فأن نُحب إنسانًا أمرٌ، وأن نعبّر له عن هذا الحب بطريقة نعرفها أمرٌ ثانٍ، وأن يتلقّى هو هذا التعبير فيفهمه حبًّا أمرٌ ثالث. وفي كل حلقة من هذه الحلقات الثلاث قد ينقطع الخيط دون أن يكون أحد قد كفّ عن الحب. قد تكون النية صادقة والتعبير في غير موضعه، وقد يكون التعبير جميلًا والتلقّي محكومًا بذاكرة قديمة تقرأ الجميل على غير وجهه.

وثمّة تفريق ثانٍ لا يقلّ أهمية. فقد يكون الإنسان أبًا صالحًا أو أمًّا صالحة، حاضرًا ومسؤولًا ومخلصًا لأبنائه، ثم لا يكون شريكًا متوافقًا مع زوجه. فالتوافق لا يقيس الأخلاق ولا حجم التضحية. إنه يقيس مدى التقاء الحاجات العاطفية لشخصين، ومدى قدرة كلٍّ منهما على ملاحظة حاجةٍ لا يشعر بها هو نفسه. ومن الظلم أن نخلط بين الأمرين، فنقول عن زوجين لا يتفاهمان إن أحدهما سيّئ، أو إن البيت فاشل. قد يكون البيت ناجحًا في أمور كثيرة، وقد يكون الأبناء محبوبين فعلًا، ويبقى الزوجان مع ذلك غريبين على بعضهما في تفاصيل دقيقة تتراكم يومًا بعد يوم.

سيتعرّف القارئ في هذه الصفحات إلى أسرة متخيَّلة من خمسة أشخاص. فاطمة امرأة نشأت في بيت متواضع تعلّمت فيه أن الحب يُرى ولا يُعلَن. وكمال رجل خفيف الظل يُصلح التوتر بنكتة، ويحتاج، دون أن يعترف بذلك بسهولة، إلى أن يسمع أنه مرغوب ومقدّر. ولهما ثلاثة أبناء: ريم الكبرى المتمرّدة الحالمة، وياسين الثاني المنصرف إلى دراسته، ولينا الصغرى التي ترتبك كلما سكت أهل البيت. لا أحد منهم شرّير، ولا أحد منهم نموذج. والكتاب لا يسعى إلى أن يقرّر من على صواب، فذلك سؤال قليل النفع. ما يعنيه هو أن يفهم كيف يصنع شخصان طيّبان جوًّا عاطفيًّا يعيش فيه أبناؤهما، وكيف يفسّر كل ابن هذا الجو بطريقته.

وأودّ أن أوضح هنا كيف يتعامل الكتاب مع المعرفة النفسية. ستمرّ بنا نظرية التعلّق، ونظرية الأنظمة الأسرية، وأفكار عن الإنصات العاطفي، وعن التجنّب والمطالبة في الخلاف. وسأعرضها أدواتٍ لفهم الواقع، لا أحكامًا نهائية عليه. أما ما يُعرف بلغات الحب فهو إطار شائع ومفيد في الحديث اليومي، لكنه ليس تصنيفًا علميًّا مثبتًا، وسأستعمله بهذه الصفة وحدها. وحيثما ذكرتُ دراسة أو نظرية فسأذكرها كما هي دون تضخيم، وسأفصل بين ما تسنده الأبحاث وما هو تأمّلٌ شخصي أو قراءة أدبية. وشخصيات الكتاب متخيَّلة، فلن يُشخِّص أحد منها طبّيًّا، لأن المقصود فهمها لا تصنيفها.

وأخيرًا، أرجو ألّا يقرأ القارئ هذه الصفحات بحثًا عن بيتٍ يشبه بيته تمامًا. فبيوت الناس تتشابه في خطوطها العامة وتختلف في تفاصيلها، والتفاصيل هي التي تصنع الألم وتصنع الحنان معًا. وإن وجد القارئ في بعض المشاهد شيئًا يعرفه، فحسبه أن يرى أن ما ظنّه خاصًّا به كان شائعًا بين الناس، وأن الكلام عنه ممكن.

الفصل الأول
ما نتعلّمه قبل أن نفهم الحب

لا أحد منّا تعلّم معنى الحب من تعريف. نتعلّمه قبل أن نعرف الكلمات، من نبرة صوتٍ تقترب حين نبكي، ومن يدٍ تتأخر أو تُسرع، ومن وجهٍ يبتسم حين ندخل الغرفة أو يعبس. وحين نبلغ سنًّا نستطيع فيها أن نسأل ما هو الحب، نكون قد كوّنّا جوابًا شبه كامل، لا نعرف من أين جاء، ونحسبه بداهة لا تحتاج إلى برهان.

تأمّل طفلين في بيتين. الأول يسمع من أبويه كل يوم عبارة المحبة، لكنه يسمعها غالبًا بعد صراخ، أو في لحظة ينشغل فيها الأب بهاتفه، فتبدو العبارة أقرب إلى الاعتذار منها إلى الاطمئنان. والثاني لا يسمع هذه العبارة إلا في الأعياد، لكنه يجد ثيابه جاهزة كل صباح، ويجد جدّته قد احتفظت له بأفضل قطعة من الطبق دون أن تُخبره. فأيّ الطفلين تعلّم أن الحب كلام؟ وأيّهما تعلّم أنه فعل؟ الجواب أصعب مما يبدو. فقد يتعلّم الأول أن الكلام لا يُعتمد عليه، وقد يتعلّم الثاني أن الحب صامت لا يُطلب. وقد يحدث العكس تمامًا، بحسب ما رآه كل منهما في غير ذلك من تفاصيل الحياة. وقلّما تظهر آثار هذا التعلّم قبل سنوات طويلة، حين يجلس أحدهما أمام شريك يُعبّر عن الحب بالطريقة المعاكسة.

وقد كان للطبيب النفسي البريطاني جون بولبي، في منتصف القرن العشرين، الفضل في لفت الأنظار إلى هذه الحقيقة. فقد رأى أن الطفل الصغير يحتاج إلى شخص راشد قريب يلجأ إليه حين يخاف، ثم يعود منه إلى استكشاف العالم، وسمّى هذا الشخص القاعدة الآمنة. وجاءت بعده الباحثة ماري إينسوورث، فبنت على أفكاره بملاحظة دقيقة لأطفال صغار حين يُفارقون أمهاتهم لدقائق ثم يعودون إليهن، ووجدت أنهم يتفاوتون في طريقة استقبالهم لها. بعضهم يعود إليها مطمئنًا ويسكن سريعًا، وبعضهم يتشبّث بها ويصعب عليه أن يهدأ، وبعضهم يتجاهلها كأن لا حاجة به إليها. وفسّرت ذلك بأن الطفل يبني، من تكرار التجربة، توقّعًا عن مدى استجابة من حوله لحاجاته.

وانتهى بولبي إلى فكرة أن الطفل يبني من هذه التجارب ما سمّاه نماذج عمل داخلية، أي تصوّرات ضمنية عن نفسه وعن الآخرين: هل أنا جدير بالرعاية؟ هل يمكن الاعتماد على من يحبني؟ وتنتقل هذه التصوّرات معه إلى علاقاته اللاحقة دون أن ينتبه. ثم جاء باحثون بعد ذلك، ومنهم سيندي هازان وفيليب شيفر في ثمانينيات القرن الماضي، وتساءلوا إن كانت هذه الأنماط تظهر في علاقات الراشدين العاطفية، فوجدوا أنها تظهر فعلًا في صورة ميول عامة. غير أن من الواجب أن نقف هنا عند حدّين. الأول أن هذه الميول ليست أقدارًا. فهي تتغير بتغيّر التجارب والعلاقات، وقد يمرّ الإنسان بشريك يمنحه أمانًا لم يعرفه في صغره فتتبدّل توقّعاته. والثاني أن الطفولة لا تفسّر وحدها كل ما نصير إليه، فللمزاج الفطري دور، وللصدف دور، وللاختيار دور.

وإلى جانب هذا التعلّم العميق الذي يتناوله علماء التعلّق، هناك تعلّم أقرب إلى السطح وأوضح للعيان، هو تعلّم قواعد البيت. فلكل أسرة قواعد غير مكتوبة عن العواطف. هل يُسمح بالبكاء أمام الجميع أم يُترك للغرف المغلقة؟ هل يُقال للغاضب إنه غاضب أم يُترك حتى يهدأ؟ هل تُعدّ المجاملة صدقًا أم تملّقًا؟ هل يُطلب الاعتذار أم يُفترض أنه مفهوم؟ لا أحد يُعلن هذه القواعد، لكن الجميع

يعرفها، ومن يخرقها يشعر بنظرات أو بصمت. ويأخذ الأطفال هذه القواعد معهم حين يكبرون، ويطبّقونها على من يحبّون، ثم يندهشون حين يخالفها أحد.

وتأتي المفارقة في أن القواعد التي تنفع في بيت قد لا تنفع في بيت آخر. فالأسرة التي كانت تقتصد في الكلام لأن الظروف كانت قاسية ولم يكن في الوقت متّسع، تُعلّم أبناءها صلابة نافعة، لكنها قد تُورثهم صعوبة في التعبير. والأسرة التي كانت تُكثر من المجاملة لأن الاحتفاء بالآخر قيمة عندها، تُعلّم أبناءها دفئًا جميلًا، لكنها قد تُورثهم صعوبة في قول ما يؤلم. وليس في أيّ من الأسلوبين ما يُدان. المشكلة تظهر حين يلتقي ابن الأسرة الأولى بابنة الثانية، فيظنّ كلٌّ منهما أن طريقته هي الطريقة الطبيعية، وأن ما عداها نقص أو تقصير.

ولا ينبغي أن نغفل البيئة الاجتماعية الأوسع. فالحيّ والمدرسة والأقارب والمعتقدات المحيطة بما يليق بالرجل وبالمرأة أن يُظهراه من مشاعرهما، كلها تشارك في هذا التعلّم. فبعض البيئات تُشجّع الرجل على المزاح وتُنكر عليه الحزن، وتُنمّي في المرأة القدرة على التحمّل وتستثقل منها الشكوى. ومن يُنشَّأ في هذه البيئات يحمل معه هذه التوقعات، فيجد نفسه أحيانًا يطلب ما لا يملكه أو يُخفي ما يحتاج إليه. وهذه كلها خلفيات لا تُبرّر ما يحدث في الزواج، لكنها تُفسّر من أين يأتي ما نظنه طبيعة.

فإذا تزوّج شخصان، حمل كل منهما إلى البيت الجديد لغته الأولى في الحب، دون أن يدري أنها لغة. يظنّ أنها الحقيقة نفسها. وفي الشهور الأولى لا تظهر المشكلة، لأن الحماسة تفسّر كل شيء على أحسن وجه، ولأن الفروق تبدو طرافة لا اختلافًا. تقول عن زوجك إنه يمزح كثيرًا فتضحكين، أو عن زوجتك إنها جادّة فتعجبك صرامتها. لكن مع مرور الوقت، وحين تتعب الأجسام وتتراكم المسؤوليات ويكبر الأبناء، يتحوّل ما كان طرافة إلى ما يشبه نقصًا في الآخر، ولا يعرف أحدهما كيف يقول ذلك دون أن يجرح.

وهذا ما سنراه في بيت فاطمة وكمال. لم يكن في زواجهما خطأ في الاختيار، فقد أحبّ كل منهما الآخر لما فيه فعلًا من جاذبية وصدق. لكن كلًّا منهما جاء من بيت علّمه أن الحب يعني شيئًا مختلفًا، وكلاهما كان على حقّ بحسب ما تعلّم. وفي الفصل التالي نبدأ بفاطمة، المرأة التي تعلّمت أن الحب يُرى قبل أن يُسمع، لنفهم من أين جاء هذا الاعتقاد وما الذي أعطاها وما الذي حرمها منه.

الفصل الثاني
امرأة آمنت بالأفعال

نشأت فاطمة في بيتٍ من غرفتين وفناءٍ صغير، في حيٍّ لا يملك أهله ترف الحديث عن المشاعر، لأن الوقت فيه كان أقصر من الحاجة دائمًا. كان أبوها يعمل سائق شاحنة ويغيب أيامًا عن البيت، وكانت أمها تخيط الثياب لجاراتها ثوبًا بعد ثوب حتى يكتمل الإيجار آخر الشهر. ولم تسمع فاطمة من أمها، طوال طفولتها، جملة تقول إنها تحبها، وليس في ذلك ما يدعو إلى الأسى. فقد كانت الأم تقول ما تريد بطريقة أخرى. تترك لابنتها قطعة الخبز الساخنة قبل أن تنادي إخوتها، وتسهر على تقصير مئزر المدرسة حين تكبر البنت في سنةٍ واحدة بمقدار سنتين، وتُمسك بيدها عند عبور الطريق حتى بعد أن صارت فاطمة تستحي من ذلك أمام صديقاتها.

وخرجت الفتاة من هذا البيت بدرسٍ لم يُكتب في أيّ دفتر. الحب هو ما يتحقق على الطاولة وفي الجيب وعند الباب. ومن يحتاج إلى أن يقول إنه يحب فهو في الغالب لا يفعل ما يكفي. وكان لهذا الدرس منطقه الذي لا يُنكر. فالكلام في ذلك البيت لم يكن يُشبع جائعًا ولا يسدّد دَينًا، وقد رأت فاطمة بعينيها أن الوعود الجميلة قد تصدر عن أناسٍ لا يفون بها. ولهذا اكتسبت ثقةً راسخة بما يمكن عدّه ورؤيته، وشيئًا من الريبة تجاه ما يُقال دون أن يُعمل به.

وتتكرّر في هذه الحكاية ظاهرة يدرسها الباحثون في نموّ الطفل تحت اسم التنشئة العاطفية. وفحواها أن الأسر تُعلّم أبناءها طريقة التعامل مع المشاعر كما تعلّمهم اللغة، بالتكرار ودون دروس. فبعض البيوت تتحدث عن الغضب والخوف والفرح بأسمائها، وبعضها يتعامل معها بالأفعال، وبعضها يتجاهلها حتى تخمد. وليس أحد الأسلوبين صحيحًا والآخر خاطئًا على الإطلاق. فالأسلوب العملي قد يكون أنسب لأسرة تُقاتل كل يوم من أجل الاستقرار، ولا تجد فسحةً للتأمل في ما يشعر به كل فرد. غير أن ما ينفع في ظرف قد يصير عبئًا في ظرف آخر، وهذا ما ستكتشفه فاطمة لاحقًا حين تدخل بيتًا مختلفًا مع رجلٍ مختلف.

وكبرت فاطمة صلبة، ولم تكن تسمّي ذلك صلابة. كانت تسمّيه أصولًا. تستيقظ قبل الجميع، وتُنهي ما عليها قبل أن تطلب شيئًا لنفسها، وتكره أن تدين لأحد بشيء. وكانت صريحة إلى حدٍّ يُزعج أحيانًا. إن سألتها صديقة عن فستانها الجديد أجابتها برأيها كاملًا، وإن وعدت بموعدٍ جاءت قبله بعشر دقائق، وإن رأت خطأً لم تحتمل أن تسكت عنه ولو كان السكوت أريح. وكانت ترى أن الحقيقة، مهما كانت مُرّة، تكريمٌ لمن تُقال له، وأن الكذبة اللطيفة نوعٌ من الاستخفاف به. وهذه قناعة محترمة، وقد أنقذت فاطمة وأسرتها من مآزق كثيرة.

لكن الصراحة التي لا ترافقها عناية بالنبرة قد تصل إلى سمع الآخر على أنها حكم عليه. وهذا ما لم تنتبه له فاطمة طويلًا. فهي حين تقول لزوجها إن النكتة التي ألقاها أمام الضيوف لم تكن موفّقة، تظن أنها تُعطيه معلومة نافعة، بينما يسمع هو أنها تُحرجه في بيته. وحين ترى أنه متضايق من أمر ما، تفكّر فورًا في الحلّ العملي، فتعرض أن تتولّى المسألة أو أن تُدخل ترتيبًا جديدًا، ولا تتوقّف عند الشعور نفسه. فالشعور في ذاكرتها القديمة شيء يمرّ إن انشغل صاحبه بالعمل.

وهنا يتّضح مفهوم يسمّيه علماء النفس إبطال المشاعر، أي أن يتلقّى المرء رسالة، عن قصد أو غير قصد، مفادها أن ما يشعر به غير مبرِّر أو مبالغ فيه أو قليل

الأهمية. ويجب أن نكون دقيقين في هذا الموضع. فإبطال المشاعر لا يستلزم سوء نية، وقد يصدر عن أحرص الناس على من يحبّون. قد تقول فاطمة لزوجها بحرارة صادقة: ماذا تريد أكثر؟ أنا أعمل وأربّي وأدبّر، ولا أقصّر في شيء. وهي في الحقيقة تدافع عن نفسها وتعبّر عن تعبها. لكن كمال يسمع في هذه الجملة أن حاجته إلى كلمة طيّبة ترفٌ لا يستحق الانتباه، وأن الطلب نفسه علامة نقص فيه.

ولا يجوز أن نخرج من هذا كله بصورة امرأة جافّة. كانت فاطمة تضحك من قلبها حين تضحك، وتحتفظ في درج المطبخ بورقة صغيرة كتب عليها ابنها الأوسط، وهو في السادسة، أن أمه أحسن أمٍّ في الدنيا لأنها تعرف أين تضع الأشياء. ولم تكن تُري الورقة لأحد، لكنها لم ترمها أبدًا. فهي تحب بقدر ما تعرف، وتعرف بقدر ما تعلّمت، ولم يُعلّمها أحد أن الحب قد لا يصل إذا لم يُترجم.

وكانت لفاطمة، فوق ذلك، قدرة نادرة على الحضور في الشدائد. إذا مرض أحد في الحيّ كانت أول من يطرق بابه بقدر طعام ساخن، وإذا ضاقت بأحد الجارات الحال سألت عنها دون أن تُشعرها بأنها تتصدّق. وهذه الفضيلة نفسها، فضيلة الحضور الفعلي، هي التي جعلتها تظنّ أن من لم يطلب شيئًا فهو لا يحتاج إلى شيء، وأن من يطلب كلمة فهو يطلب ما هو دون الأصل. فكلّ فضيلة تحمل في طيّاتها ظلًّا خاصًّا بها، وظلّ هذه الفضيلة أنها قد تُعمي صاحبتها عن حاجات لا يمكن سدّها بالخدمة.

وفي زواجها بكمال كانت أفعالها كلها تقول: أنا هنا ولن أذهب. وكانت تظنّ أن هذه الجملة مفهومة بذاتها، كما كانت مفهومة في بيت أمها. ولم يخطر لها أن رجلًا نشأ في بيت مختلف قد يحتاج إلى أن يسمعها لا أن يستنتجها. وفي الفصل التالي نتعرّف إلى كمال، ونرى من أين جاءت حاجته هذه، وكيف تعلّم أن الحب شيء يُقال ويُسمع، وأن الصمت الطويل قد يكون في ذاكرته علامة غياب لا علامة اطمئنان.

الفصل الثالث
رجل احتاج إلى أن يسمع

إن سألت أصدقاء كمال عنه قالوا إنه أخفُّ من عرفوه ظلًّا. يدخل المجلس فيتبدّل الجوّ، ويحكي عن موظف البنك وطابور الخبز حتى يضحك من لم يكن ينوي الضحك. وكان على هذه الحال في بيته الأول. فقد نشأ بين أمٍّ تُغدق على أبنائها عبارات الودّ صباحًا ومساءً، وتُنادي كلًّا منهم بأحبّ الأسماء إليها، وتقول عن زوجها أمام الجميع إنه أطيب رجل في الدنيا. كان البيت عامرًا بالأصوات والدعابات والمجاملات، وتعلّم كمال منه أن الحب شيء يُسمع، وأن من لا يسمعه يتساءل في سرّه عمّا إذا كان ما زال موجودًا في قلب من يحب.

وفي المقابل، لم يكن ذلك البيت يتّسع لكل شيء. فقد مرض والده مرضًا طويلًا حين كان كمال في العاشرة، ولم يشرح له أحد ما يجري. كانت الأم تقول إن كل شيء بخير، ويقول الجميع إنه سيشفى قريبًا، ويُطلب من الأولاد أن يمزحوا حتى لا يحزن الأب. وتعلّم الصبي درسًا ثانيًا لم ينتبه إليه في حينه. الكلام الحلو مرحّب به دائمًا، أما الكلام عن الخوف والتعب والقلق فيُؤجّل ويُغلَّف بنكتة. ومنذ ذلك الحين صارت الدعابة عنده وسيلةً لإدارة الجوّ، وصار كتمان ما يزعجه عادةً لا يلاحظها حتى هو.

هذا ما يجعل كمال شخصًا فيه تناقض، وليس هذا التناقض عيبًا خُلقيًّا، بل أثرٌ لتعلّم لم يكتمل. فهو يريد من زوجته أن تفتح له قلبها وأن تقول له بوضوح إنها تقدّره وتحبه وتشتاق إليه. لكنه حين يمرّ بيوم سيئ في العمل، أو يخشى شيئًا لا يعرف كيف يسمّيه، يقول إن الأمور بخير ويقترح مسلسلًا يشاهدانه معًا. ويعتقد بصدق أنه يحمي البيت من التوتر. ولا يرى أن زوجته تشعر بأنه يحجب عنها جزءًا منه، في الوقت الذي يطلب منها أن تعطيه كل شيء.

يتحدث علماء النفس عن الحاجة إلى الطمأنة بوصفها حاجة إنسانية عادية. فنحن جميعًا نحتاج، في أوقات مختلفة، إلى أن نعرف أننا مهمّون عند من نحب. والاختلاف بيننا يكمن في مقدار هذه الحاجة وفي الطريقة التي نُشبعها بها. بعض الناس يكفيهم أن يشعروا بحضور شريكهم، وبعضهم يحتاج إلى أن يسمع الكلمة. ويُسمّى الإطار الشعبي الذي يصف هذه الفروق لغات الحب، وقد انتشر انتشارًا واسعًا لأنه يمنح الناس مفردات بسيطة لشيء كانوا يشعرون به دون أن يسمّوه. لكنه يبقى إطارًا شائعًا في الثقافة العامة، ولا تسنده الأبحاث بوصفه تصنيفًا ثابتًا يقسم الناس إلى أنماط محدِّدة. ولهذا لن نستعمله في هذا الكتاب إلا أداةً للتفكير، وسنقول إن كمال يميل إلى أن يشعر بالحب حين يسمعه، دون أن نجعل ذلك قدَرًا عليه.

والطمأنة لا تصير مشكلة في ذاتها. تصير مشكلة حين يعتمد عليها الشخص وحدها، أو حين يطلبها بطريقة تجعل الطرف الآخر يشعر بأنه متَّهم. وكان كمال يطلبها على الطريقة التي تعلّمها، أي بالمزاح. يسأل فاطمة وهو يبتسم: ألن تقولي لي شيئًا جميلًا اليوم؟ فتسمع هي سؤالًا يحمل عتابًا مبطّنًا، فتجيب بجفاف أنها أعدّت العشاء وغسلت ثيابه. فيضحك ويردّ بنكتة ويطوي الأمر، ويبقى في صدره شيءٌ صغير لا يقوله. وفي المرة التالية يطلب بصيغة أخفّ، ثم أخفّ، حتى لا يبقى من طلبه ما تستطيع أن تلتقطه.

وللمزاح عند كمال وجهٌ آخر لا يعرفه عن نفسه. فهو يخفّف به حدّة الموقف أحيانًا على حساب الآخر. قال ذات مساء، أمام أخيه وزوجته، وهو يمدّ يده إلى الطبق، إن فاطمة تطبخ بدقة موظفة في مصلحة الضرائب، كل شيء بالميزان ولا مجال للمفاجآت. ضحك الجميع، وضحك هو، وابتسمت فاطمة ابتسامة قصيرة ثم قامت إلى المطبخ. لم يكن في الجملة سوء نية، وكان يعدّها غزلًا من نوع غريب. أما هي فسمعت أن اجتهادها ظريف فحسب، وأن ما تبذله من جهد يُختصر في طرفة. وحين سألها لاحقًا إن كانت غاضبة قالت إنها بخير، فصدّقها لأنه أراد أن يصدّق.

ولا يعفيه كون الجملة مزحة من أثرها. فالنية الطيبة تفسّر ما حدث ولا تُلغيه، وسيظهر هذا المبدأ مرارًا في الفصول القادمة. كما أن حاجته إلى سماع الحب حاجة مشروعة، لكنها لا تبرّر أن يطلب من فاطمة ما لا يعطيها مثله. فهو يريد منها أن تقول، وهو لا يقول لها ما يخيفه، ولا يخبرها بما يثقل عليه، ويظنّ أن طلب الدفء من غير مشاركة الهموم أمر عادل. وهذا ما تسمّيه المرأة التي تعلّمت أن الحب مسؤولية: مشاركة غير متكافئة.

ومع ذلك لم يكن كمال أنانيًّا. كان يحمل عن أبنائه ما يستطيع، ويذكّر فاطمة بدوائها حين تنسى، ويتصل بها من الطريق ليسأل إن كانت تحتاج شيئًا من السوق. وكان إذا رآها متعبة أعدّ لها كوب الشاي دون أن تطلب. لكنه كان يفعل ذلك وينتظر، دون أن يعترف لنفسه، كلمة شكر يسمعها، وحين لا تأتي يتألم بصمت ويقول لنفسه إن الأمر لا يستحق الذكر. وهكذا اجتمع في بيت واحد شخصان يعطيان كثيرًا وينتظران ما لم يتفقا على تسميته. وفي الفصل التالي نتناول هذا الاختلاف بين التعريفين اللذين حمل كل منهما إلى الزواج، وكيف يمكن للفعل الواحد أن يعني شيئًا مختلفًا عند كل منهما.

الفصل الرابع
تعريفان مختلفان للحب

في شتاءٍ من الشتاءات أصيبت فاطمة بنزلة برد شديدة ألزمتها الفراش ثلاثة أيام. نهض كمال في اليوم الأول قبل الجميع، وأعدّ الإفطار للأولاد، وأوصل ريم إلى مدرستها، وسأل جارتهم عن دواء مناسب، وعاد ليجد زوجته نائمة فوضع الكوب إلى جانب السرير على أطراف أصابعه. وفي المساء جلس بجوارها وقال: لا تفكّري في شيء، أنا هنا، وأنتِ أغلى ما عندي. ابتسمت فاطمة وهي نصف نائمة وقالت: شكرًا. ثم أضافت بعد لحظة: لكن لا تنسَ أن ياسين عنده اختبار غدًا، ولم يراجع الدرس الأخير.

لو سألنا كمال عمّا حدث تلك الليلة لقال إنه قدّم لها كل ما يستطيع، وإنها ردّت بقائمة مهامّ. ولو سألنا فاطمة لقالت إنها كانت ممتنّة فعلًا، وإنها أرادت أن تُعينه فيما يفعل حتى لا يضيع شيء. وكلاهما صادق. فقد رأى كمال في جملتها أن انشغالها بالواجبات أكبر من انشغالها بحنانه، ورأت هي في جملته الدافئة شيئًا جميلًا لكنه لا يحلّ مشكلة ياسين. وانتهت الليلة بلا خلافٍ ظاهر، غير أن كلًّا منهما حمل منها انطباعًا صغيرًا عن الآخر، وهذه الانطباعات الصغيرة هي مادة هذا الفصل.

لنفصل ما اجتمع في تلك الليلة. هناك أولًا النية. أراد كمال أن يعتني بزوجته ويُطمئنها، وأرادت فاطمة أن تشكره وتُشاركه حمل البيت. ثم هناك التعبير. عبّر كمال بالكلمات والخدمة معًا، وعبّرت فاطمة بشكرٍ مقتضب ثم بالانتقال إلى ما ينبغي إنجازه. ثم التفسير. فسّر كمال انتقالها إلى الواجبات على أنه تقليل من شأن ما قاله، وفسّرت هي عبارته على أنها كلام لطيف خالٍ من المحتوى العملي. وأخيرًا الأثر، وهو ما بقي في نفس كل منهما، فشعر كمال بأنه لم يُـرَ، وشعرت فاطمة بأنها لم تُفهَم. أربع حلقات متتابعة، والخطأ ليس في إحداها وحدها، بل في الفجوة التي تتّسع بينها كل مرة.

من المألوف في الحديث عن العلاقات أن نكتفي بالحلقة الأولى فنقول إن فلانًا يحب فلانة وننتهي. غير أن المحبة بوصفها نية لا تكفي لتفسير ما يشعر به الطرف الآخر، لأن الشعور بالحب لا يحدث في صدر المحبّ بل في صدر المحبوب. وما يصل إلى المحبوب هو تعبير مفسِّر بحسب خبراته وتوقعاته. فإذا اختلفت خبرات الاثنين اختلف التفسير، وقد يصل التعبير الدافئ بوصفه سطحيًّا، ويصل التعبير العملي بوصفه باردًا، ولا يصل في الحالتين ما قصده صاحبه.

وتفيد هنا التفرقة بين إظهار المودّة والتواجد العاطفي. فالأول أن نعبّر عن ودّنا بالكلمة أو اللمسة أو الفعل. والثاني أن ننتبه فعلًا إلى حال من أمامنا وأن نستجيب لما يحتاجه في تلك اللحظة، وهو شيء قد يتحقق بالصمت أو بالكلام أو بالعمل بحسب الموقف. يمكن لإنسان أن يُكثر من العبارات الحانية وهو منشغل عن الشخص الذي يقولها له، ويمكن لآخر أن يؤدي كل ما عليه من واجبات وهو لا يرى ما في وجه شريكه. وفي بيت فاطمة وكمال كان كلٌّ منهما حاضرًا بطريقته، لكن كلًّا منهما كان ينتظر حضورًا من النوع الآخر.

ويمكن أن نرى ذلك في أمثلة صغيرة من الحياة اليومية. حين يعود كمال من عمله ويلاحظ أن فاطمة غيّرت ترتيب الأثاث، يقول لها إن البيت صار أجمل وإنها تملك ذوقًا رائعًا، وهو يقصد أن يقدّر جهدها. وهي تسمع المجاملة لكنها

تفضّل أن يشاركها نقل الخزانة في المرة القادمة. وحين تتصل فاطمة بكمال لتخبره أنها دفعت فاتورة الكهرباء وأن الأمور مرتّبة، تقصد أن تقول له إنه لا داعي للقلق، فيسمع هو معلومة ليس فيها ما يخصّه. وفي كل مرة يقدّم أحدهما للآخر شيئًا حقيقيًّا ويتلقّى استجابة باهتة، فيقلّ ما يقدّمه في المرة التالية قليلًا، دون أن يقرّر ذلك.

وكانت لكل منهما، إضافةً إلى ذلك، طريقة في قراءة ما يقدّمه الآخر. كانت فاطمة تحكم على الحب بما يتكرّر. فعلٌ واحد جميل لا يعني عندها كثيرًا إن لم يصبح عادة، وكلمة حانية لا تُقنعها إلا إذا استمرّت أسابيع. وكان كمال يحكم على الحب بما يفاجئ. يؤثّر فيه أن تقول له زوجته عبارة لم يتوقعها أكثر من عشر سنوات من الأمانة الصامتة. وهكذا كان كلٌّ منهما يعدّ ما يعطيه كثيرًا لأنه مستمر أو لأنه صادق، ويعدّ ما يتلقّاه قليلًا لأنه لا يشبه ما اعتاد أن يراه حبًّا.

ولا تعني هذه الفروق أن أحدهما محقّ والآخر مخطئ. فالأمانة المتكررة قيمة حقيقية، والكلمة الصادقة قيمة حقيقية، وكلٌّ منهما يبني الثقة بطريقته. تظهر المشكلة حين يظنّ كل واحد أن تعريفه هو التعريف الوحيد، فيقيس الآخر به ويرى النقص. وقد يعود ذلك إلى الاعتقاد بأن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى شرح، وهو اعتقاد شائع ومريح، لكنه يضع عبء الفهم على من لا يملك أدواته. فمن يحتاج إلى الكلمة لا يعرف كيف يقول إن فعل الشريك لا يكفيه دون أن يبدو ناكرًا للجميل، ومن يعطي بالفعل لا يعرف كيف يسمع طلب الكلمة دون أن يظنّه اتهامًا.

وكان من الممكن أن يتحوّل هذا الاختلاف إلى مصدر ثراء. فلو أدركا أن عند كل منهما لغة، لتعلّم كمال أن يرى في الشاي الذي يصل إلى يده اهتمامًا حقيقيًّا، ولتعلّمت فاطمة أن جملة قصيرة في آخر اليوم لا تكلّفها شيئًا ولا تنقص من صدقها. لكن هذا الإدراك يحتاج إلى حوارٍ عن الحوار نفسه، وهو أصعب أنواع الحديث بين الزوجين، لأنه يقتضي الاعتراف بأن شيئًا ما ينقص دون أن يتحوّل

الاعتراف إلى شكوى. ولم يعرف الاثنان كيف يبدآن هذا الحوار. ولـذلك مضـت سنوات قبل أن تتراكم تلك الانطباعـات الصـغيرة وتصـبح مـا سـنراه في الفصـل التالي: أشياء صغيرة لا تستحق الذكر، وجد الزوجان نفسيهما فجأة يتحدثان عنها كأنها حياتهما كلها.

الفصل الخامس
الأشياء الصغيرة التي تصبح كبيرة

لم يبدأ الأمر بخلافٍ كبير. بدأ بمفتاح. كان كمال يضع مفتاح السيارة في أي مكانٍ يقع عليه نظره حين يدخل البيت، وكانت فاطمة تقضي صباح كل يوم في البحث عنه قبل أن تتمكّن من الخروج. قالت له مرة بنبرة هادئة إن وضعه في مكانٍ واحد لا يكلّفه شيئًا، فضحك وقال إنه سيعلّق لها لافتة عند المدخل: «مفتاح السيد كمال، يُرجى عدم الإزعاج». ضحكت هي أيضًا، وكان ذلك قبل ثماني سنوات. لكن المفتاح بقي يضيع، وبقيت الملاحظة تتكرّر، وبقيت النكتة تُقال، إلا أن الضحك صار أقصر في كل مرة، حتى جاء صباحٌ لم يضحك فيه أحد.

مثل هذه المواقف لا تُحكى لأحد لأنها تبدو تافهة. لو سُئلت فاطمة عن سبب ضيقها لما ذكرت المفتاح، ولو سُئل كمال عن سبب حزنه لما ذكر النكتة التي لم تُضحكها. غير أن ما يجري تحت السطح ليس مفتاحًا ولا نكتة. تسمع فاطمة في كل مرة أن ما طلبته لا يستحق الجدّية، ويسمع كمال أن مزاحه لا يُحتمل. ولا يقول أيٌّ منهما ذلك بصوتٍ عالٍ، لأن قوله يبدو مبالغة في موقف صغير. وهنا بالذات يحدث التراكم.

مساء الحسابات

في آخر كل شهر كانت فاطمة تجلس إلى طاولة المطبخ ومعها دفتر صـغير بغلاف أزرق، تدوّن فيه ما صُرف وما بقي. وكان كمال يمرّ بها وهو يحمل كـوب الشاي ويعلّـق مازحًـا على «وزيـرة الماليـة». في تلـك الليلـة تـوقفت يـدها عن الكتابة.

«هل رأيت فاتورة الماء؟ لقد تضاعفت»، قالت دون أن ترفع رأسها.

«لعلّ الماء أحبّنا أكثر هذا الشهر»، أجاب وهو يبتسم.

لم تبتسم. قـالت بهـدوء: «أنـا لا أمـزح يـا كمـال. أحـاول أن أفهم أين ذهب المال».

«حسنًا، حسنًا. لا داعي للغضب. أنا فقط أحاول أن أخفّف الجو».

ومضى إلى الصالة. وبقيت هي أمام الدفتر، وقد تبدّلت الأرقام في عينيها إلى شيء آخر. كانت تقول لنفسها: لماذا لا يستطيع أن يسـمع الأمـر كمـا هـو؟ أنـا لا أطلب منـه شـيئًا كبـيرًا، أطلب فقـط أن يجلس معي خمس دقـائق ويهتم. وفي الصالة كان كمال يقلّب القنوات دون أن يرى شيئًا، ويقول لنفسه: أنـا لم أقصـد شيئًا. لماذا تحوّل كل كلمة إلى محاكمة؟ ثم يستدرك: ربما لو قالت لي فقط إنها تقدّر ما أفعل، لكان كل شيء أسهل.

هذا المشهد لا يحوي خطأً جسيمًا من أحد. كلٌّ منهما قال جملـة معقولـة في ظاهرها. لكن فاطمـة طلبت شـريكًا في الجدّيـة فتلقّت دعابـة، وكمـال أراد أن يخفّف التوتر فتلقّى ما فهمه عتابًا. وفي داخل كل منهما حوارٌ لم يُسـمع، يمضي في اتجاه مغاير لما قيل بصوتٍ مسموع. وهذا ما يجعل الحياة المشـتركة أحيانًـا حوارين متوازيين لا يلتقيان.

كيف يتراكم الاستياء

كل حادثة منفردة من هذا النوع يمكن تجاوزها. لكن الحوادث لا تبقى منفردة، إذ تحتفظ بها الذاكرة العاطفية كما تُحفظ قطع النقود في علبة، لا يرى صاحبها وزنها إلا حين يحاول أن يحملها. ويصف الباحثون هذه الظاهرة بالاستياء المتراكم، وهو شعورٌ بالضيق من سلوكٍ متكرّر لم يُناقَش ولم يجد حلاًّ. ولا يتحوّل الاستياء إلى مشكلة لأنه موجود، فكل علاقة تُنتج قدرًا منه، بل لأنه يغيّر طريقة قراءة السلوك المقبل. فمن لديه رصيد من الاستياء يقرأ تصرفات شريكه الجديدة على ضوء الماضي. إذا تأخر كمال خمس دقائق رأت فاطمة في ذلك تكرارًا لعدم اكتراثه، وإذا قالت فاطمة جملة صريحة سمع كمال فيها استمرارًا لقسوتها. أي أن التفسير يسبق الحدث. وهذا من أصعب ما يحدث في الحياة الزوجية، لأن الطرف الآخر قد لا يفعل شيئًا جديدًا ويُحاسَب مع ذلك على ما سبق.

وفي المراحل الأولى يكون الاستياء خفيفًا ويمكن حمله. لكن مع الوقت يتجمّع في جانبٍ من النفس، فلا يعود صاحبه يرى في شريكه شخصًا بعينه، بل يرى فيه مجموع ما لم يُقَل. وعندئذ تصبح الجملة العابرة سببًا لانفعال لا يتناسب معها، ويستغرب الطرف الآخر ما يحدث، فيدافع عن نفسه أو يتراجع أو يردّ بالمثل، وكل ذلك يضيف إلى الرصيد.

الفصل السادس
اليوم الذي صار فيه الطلاق احتمالًا

لا يعرف أبناء فاطمة وكمال إلى اليوم ما الذي حدث بالضبط في ذلك الأسبوع من شهر مارس. وهذا الكتاب لا يعرفه أيضًا، أو بالأحرى لا يرى أنه مهم. فالأسباب التي تقود زوجين إلى حافة الانفصال تتفاوت بين حادثة واحدة وتراكم طويل، وقد تكون الحادثة الظاهرة هي آخر قطرة في كأس ملأته سنوات. ما يعرفه الأولاد هو ما شاهدوه، وما شاهدوه كان شظايا. باب أُغلق بقوة لم يعتادوها، وحقيبة وُضعت قرب الباب ثم أُعيدت إلى مكانها، وصوت أمهم من خلف الجدار يقول جملة لم يفهموا منها سوى كلمة واحدة، وصوت أبيهم يجيب بنبرة لم يسمعوها من قبل.

كانت ريم في الخامسة عشرة، وهو عمر يفهم فيه الإنسان أن ثمة شيئًا خطيرًا ولا يعرف ما هو. جلست على سريرها وأقفلت الباب ووضعت سماعات الأذن، لكنها لم تشغل أي موسيقى. كان ياسين في الحادية عشرة، فقرر أن أفضل ما يفعله هو أن يذاكر بانتظام أكثر من المعتاد، كأن النجاح في الاختبار قد يمنع الكارثة. أما لينا فكانت في السابعة، وفهمت أن شيئًا سيئًا يحدث لأن أحدًا لم يتحدث إليها لمدة طويلة، فجلست في الصالة تلون ورقة واحدة مرات متتالية وتسأل كل من يمر إن كان غاضبًا منها.

في اليوم الثالث، قالت فاطمة لأولادها إن الأب سيقضي بضعة أيام عند عمه، وإن الأمور ستتحسن. لم تقل أكثر، لأنها لم تكن تعرف أكثر، ولأنها لم تعرف كيف تُقال الحقيقة لأطفال في ثلاثة أعمار مختلفة. وتلك معضلة حقيقية. فالأطفال يحتاجون إلى صدق يناسب أعمارهم، لا إلى تفاصيل خلاف الكبار ولا إلى طمأنة فارغة. الجملة الأولى التي قالتها فاطمة كانت صحيحة، لكن الثانية كانت وعدًا لا تملك ضمانه. والأطفال، على عكس ما نظن، يلتقطون هذا التفاوت بين ما يُقال وما يُرى. فإذا قيل لهم إن كل شيء بخير والوجوه تقول غير ذلك، لا يصدقون الكلام بل يصدقون الوجوه، ثم يتعلمون أن الكلام وحده لا يُعتمد عليه.

ثلاثة أبواب مغلقة

إن أردنا أن نفهم ما جرى في ذلك الشهر، فلننظر إلى كل طفل في الغرفة التي لجأ إليها، فلكل منهم ملاذه وطريقته في احتمال ما لا يُحتمل.

أغلقت ريم باب غرفتها وجلست على الأرض مستندة إلى السرير، وأخرجت دفترها الصغير الذي تلصق فيه الصور والجمل. فتحته على صفحة فارغة وبقيت تنظر إليها طويلًا. كتبت في النهاية سطرًا واحدًا ثم شطبته، ثم كتبته من جديد بخط أصغر. لو قرأناه لوجدناه مجرد سؤال: «هل يعرفان أننا نسمع؟». كانت تسمع فعلًا. لم تكن تسمع الكلمات، بل ما بينها، ذلك الإيقاع الذي يتبدل حين يصل الحديث إلى موضوع معين. وكانت تعدّ على نفسها أنها كبرت بما يكفي لتُخبَر، وأن من حقها أن تعرف، وأنها في الوقت نفسه لا تريد أن تعرف. وحين طرقت أمها بابها مساء اليوم الثاني وسألتها إن كانت تريد أن تأكل، أجابت دون أن تفتح: «لست جائعة». ثم بقيت واقفة خلف الباب تسمع خطوات أمها تبتعد، وتتمنى لو أنها استمرت في الطرق.

كان رد فعل ريم نموذجيًا لمراهقة في مثل عمرها. فالمراهقون يحتاجون إلى الاستقلال والخصوصية، لكنهم يحتاجون في اللحظة نفسها إلى أن يعرفوا أن

أحدًا يهتم. وحين يتعارض الاثنان، يختارون في الغالب الانسحاب الظاهري مع ترقب خفي لمن يقتحم هذا الانسحاب بلطف. ولم يقتحمه أحد، لأن أمها احترمت ما بدا لها رغبة في الانفراد، ولأن أباها لم يكن موجودًا. وهكذا تعلمت ريم، من حيث لا يقصد أحد، أن الاحتياج المخفي لا يُلبّى.

أما ياسين فقد كان يعمل. وضع جدولًا جديدًا على الورق، قسّم فيه كل مساء إلى ثلاث فترات، وكتب في أعلاه عنوانًا صغيرًا: «الأسبوع الصعب». لم يكن يعرف تمامًا لماذا سماه كذلك. أنهى في تلك الأيام كتابين من كتب القراءة المقررة قبل موعدهما بشهر، وحلّ كل تمارين الرياضيات في الوحدة القادمة. وحين سألته جدته بالهاتف كيف حاله قال إنه بخير وإن عنده اختبارات. وكان صادقًا في الاثنين. غير أنه لم يخبرها بما كان يفعله في اللحظات التي ينتهي فيها من كل شيء ولا يجد ما يشغله، حين كان يجلس على حافة سريره ويسمع صوتًا بعيدًا من الغرفة المجاورة فيعود فورًا إلى الكتاب.

إن ما يفعله ياسين مألوف، وليس بالضرورة مرضيًا. فكثير من الأطفال والبالغين يلجؤون إلى النشاط المنظم في فترات القلق، لأنه يعطيهم شعورًا بالسيطرة حيث لا سيطرة. ويصبح ذلك مشكلة فقط حين يصير الوسيلة الوحيدة لمواجهة الانفعال، فلا يجد صاحبه سبيلًا آخر حين يزول النشاط. لم نكن في ذلك الأسبوع أمام مشكلة بعد، وإنما أمام بذرة طريقة سيعتمد عليها ياسين طويلًا لاحقًا.

وجلست لينا في الصالة. كانت تملك علبة ألوان خشبية جديدة أهداها لها أبوها قبل شهر، ولم تستعملها إلا في ذلك الأسبوع. رسمت بيتًا بنوافذ كثيرة وخمسة أشخاص واقفين أمامه، وطلبت من كل من مرّ أن ينظر ويقول رأيه. «هل هو جميل؟ هل أحببتِه؟ هل أنت غاضب؟». وكانت تسأل السؤال الأخير بصيغ كثيرة، مرة لأمها، ومرة لياسين، ومرة للجدار. حين أجابها ياسين مرة بنفاد صبر بأنها تسأل كثيرًا، توقفت عن الكلام ورسمت دائرة صغيرة في زاوية الورقة ثم

قالت بصوت خافت: «آسفة». لم يكن ياسين يقصد أن يؤلمها، لكنه رأى وجهها فصمت، ولم يعرف ما يقول.

وما نراه عند لينا هو ما يسميه الباحثون مراقبة الإشارات الاجتماعية، أي انتباه الطفل الحاد إلى تعبيرات الوجوه ونبرات الأصوات بحثًا عن أي علامة على الخطر. وهذه القدرة بحد ذاتها نعمة، فهي أساس التعاطف والفهم. لكنها حين تُستخدم لغرض الحماية قبل الفهم، قد تتحول إلى حارس لا ينام. فالطفل الذي يشعر بأن الأمان قد يزول فجأة يتعلم أن يظل متيقظًا، وأن يعدّ على نفسه خطأً أي صمت لا يفهمه.

ثلاثة أبواب مغلقة، وثلاث طرق مختلفة لتحمل غياب الإجابة، وأب وأم في عالمين آخرين لا يعلمان أن أولادهما ينتظرون كلمة واحدة تقول إنهم ليسوا السبب.

تقدم الباحثان الأمريكيان مارك كامينغز وباتريك ديفيز بنظرية عن الأمان العاطفي لدى الأطفال، تقترح أن ما يؤثر في الطفل أثناء خلاف والديه ليس وجود الخلاف نفسه بل ما يفهمه منه عن استقرار الأسرة وعن أمنه. فالطفل يسأل نفسه، دون وعي في الغالب، هل سيتوقف هذا؟ هل سيؤذي أحدًا؟ هل ستبقى أسرتي سالمة؟ وهل أنا سبب هذا؟ والمرجح أن الخلافات التي تُحل ويرى الطفل أنها حُلّت أقل ضررًا عليه من الخلافات التي تبقى معلقة، وأن الخلاف المحترم يختلف في أثره عن الخلاف المهين. وهذه أفكار مدعومة بأبحاث كثيرة، لكنها لا تعني أن كل طفل يتأثر بالطريقة نفسها، وسنرى ذلك في ثلاثة أطفال من بيت واحد.

أسوأ ما في تلك الأيام لم يكن الصراخ، فلم يكن هناك صراخ يُذكر. كان الغموض. لم يعرف الأولاد هل هو حدث انتهى أم بداية سلسلة. كانوا يستيقظون ليجدوا أن أمهم أعدت الفطور كالمعتاد بوجه جامد، وأن أباهم يتصل في المساء

ويسأل كل واحد عن يومه بصوت أخف من المعتاد ثم يغلق دون أن يقول متى سيعود. وكان كل طفل يملأ هذا الفراغ بتفسير خاص. ظنت ريم أن الأمر منتهٍ وأن أحدًا لن يخبرها. وظن ياسين أن عليه ألا يسبب أي مشكلة إضافية. وظنت لينا أن شيئًا ما كان يجب أن تفعله بطريقة مختلفة.

وفي الأسبوع الثاني، عاد كمال. لم يحدث ذلك بعد مشهد درامي ولا بعد وعد معلن. جاء مساء يوم خميس وطرق الباب كأنه ضيف، فاستقبلته لينا بقفزة لم تتمالك نفسها عنها، ثم نظرت إلى أمها وكأنها تسأل إن كان هذا مقبولًا. قالت فاطمة بصوت هادئ: ادخل. وجلسوا إلى العشاء كأن شيئًا لم يكن، ولم يرد أحد على ما حدث. وتحدث كمال عن حركة السير في الطريق، وعلقت ريم على طعم الأرز، ولم يُذكر الأسبوعان الماضيان بكلمة.

ما لم يقله أحد على المائدة

لو استطعنا أن نسمع ما دار في الرؤوس أثناء ذلك العشاء لسمعنا خمسة أصوات لا يشبه أحدها الآخر. كانت فاطمة تقطّع الخبز إلى لقمات صغيرة متساوية، وتقول لنفسها إنها لن تسأله شيئًا. لن تسأله أين نام، ولا ماذا قال لأخيه، ولا هل فكّر فيها لحظة واحدة. «إن أراد أن يتكلم فليتكلم. لم أطرد أحدًا. أنا فقط لم أعد أحتمل أن أشرح لرجل بالغ ما كان ينبغي أن يراه بنفسه». ثم تلتفت إلى لينا وتملأ لها كوب الماء، وتدرك أن يدها ترتجف قليلًا، فتخفيها تحت حافة الطاولة. لم تكن غاضبة في تلك اللحظة بقدر ما كانت مرهقة إلى درجة لا اسم لها، ومعها شيء آخر لم تسمّه، وهو أنها فرحت حين سمعت صوت الباب.

وكان كمال، في الجهة المقابلة، يبحث عن جملة يبدأ بها. يعرف عشرات الجمل المرحة التي تنجح عادة، وكل واحدة منها تبدو له الآن كأنها ستُقال في بيت غريب. «لو قلت نكتة فستظنني لم أفهم شيئًا. ولو سكتّ فستظن أنني لا أبالي». فاختار أن يتحدث عن زحمة الطريق، لأن الزحمة موضوع بريء لا يطلب

اعتذارًا ولا يعد بتغيير. وكان في أعماقه يريد أمرًا واحدًا فقط، أن تنظر إليه فاطمة نظرة تقول إنها سعيدة بعودته. لم تنظر، أو نظرت ولم يلتقط، وهذا ما سيظل يسأل نفسه عنه شهورًا.

وفي الزاوية التي بين الاثنين جلست ريم تراقب كل شيء من غير أن ترفع رأسها. كانت تحصي عدد المرات التي تجنبت فيها أمها الكلام المباشر مع أبيها، وتقيس بعين خبيرة المسافة بين كرسيهما. «سيتظاهران بأن شيئًا لم يحدث. هكذا يفعلان دائمًا. وسنتظاهر معهما، ثم نتعلم ألا نسأل». وكانت غاضبة منهما، ومن نفسها لأنها تشعر بالارتياح لوجود أبيها، ومن ياسين الذي يأكل بهدوء كأن شيئًا لم يكن. أما ياسين فكان يأكل بالفعل، لأنه قرر في الطريق إلى الطاولة أن العشاء مجرد عشاء، وأن عليه أن يراجع درس العلوم بعده. كان يطبق على نفسه قاعدة بسيطة: ما لا أستطيع حله لا أفكر فيه الآن.

ولينا هي التي كسرت الصمت أخيرًا. رفعت رأسها من طبقها وقالت لأبيها: «هل ستنام هنا الليلة؟». سؤال بريء وخطير في آنٍ واحد. تبادل الزوجان نظرة سريعة، ثم قال كمال: «نعم يا حبيبتي». وقالت فاطمة في الوقت نفسه: «كُلي طعامك». فضحكت لينا ضحكة قصيرة من الارتياح، ورأى الجميع أنها ضحكة أكبر من حجم الموقف. لم يعلق أحد على ذلك. لكن كل واحد من الخمسة غادر المائدة وفي ذهنه جملة لم يقلها، وستمر سنوات قبل أن يعرف أحدهم أن الآخرين كانوا يحملون جملًا مشابهة.

يصف علماء النفس هذا النوع من المواقف بأنه تواصل ناقص، فكل شخص يتصرف بناء على ما يظنه عن الآخرين، لا على ما يعرفه فعلًا. وحين تغيب المعلومات الواضحة يملأ الإنسان الفراغ بالأسوأ في الغالب، أو بالأكثر أمانًا لنفسه. ولو قال أحدهم بصوت مسموع إنه خائف، أو إنه سعيد، أو إنه لا يعرف ماذا يقول، لتغيرت المائدة كلها. غير أن الصدق في لحظة كهذه يحتاج إلى شجاعة لم يكن أحد على استعداد لها.

لقد صالحا بعضهما، وهذا حقيقي. غير أن المصالحة لم تـأتِ بالشـكل الـذي يتخيله من يقرأ الروايات. لم تكن هناك محادثة طويلة ولا دموع ولا عهود جديدة، بل كانت اتفاقًا ضمنيًا على العودة إلى ما كان. وسنرى في الفصل التالي أن هذا النوع من الاتفاق ينقذ البيت من الانهيار ولا ينقذه بالضرورة من أسباب الأزمـة. أما الأولاد فقد فهموا شيئًا آخر. فهموا أن البيت الذي كان ثابتًا يمكن أن يتزعزع، وأنه قد يتزعزع دون إنذار ودون تفسير، وأن الكبار حين يعودون إلى هدوئهم لا يشرحون ما جرى. وليس هذا درسًا قصدته فاطمة ولا كمال، لكنه تعلمه الأطفال الثلاثة على أي حال.

ويجدر بنا أن نكون منصفين تجاه الوالدين. لقد اتخذا قرارًا صعبًا بالرجوع، ودفعا ثمنه من كبريائهما. ولم يكن أي منهما يتصرف بقسوة أو بإهمال. لكن حسن النية لا يمحو أن غياب الشرح ترك فراغًا ملأه كل طفل بما اسـتطاع، وأن هـذا الفراغ بقي في البيت طويلًا بعد أن عادت الحيـاة إلى مجراهـا. ولا نقـول هـذا لنحمّل الوالدين وزرًا، فهما لم يعرفا كيف يقـولان لأبنائهمـا مـا لم يعرفـا كيـف يقولانه لأنفسهما. نقوله لأن في فهم ما حدث تلك الأيام ما يفسر كثيرًا مما حدث بعدها.

الفصل السابع
المصالحة ليست علاجًا

في الأسابيع التي تلت عودة كمال، كان البيت أهدأ من أي وقت مضى. يتحدث الزوجان بأدب، ويشكر كل منهما الآخر على أصغر الأشياء، ويتجنبان المواضيع التي قد تُشعل شيئًا. وكان الأولاد يلاحظون هذا الهدوء الجديد ويصدقونه، لأنهم أرادوا أن يصدقوه. غير أن من يعرف الأسر عن قرب يعرف أن هذا النوع من السلام شديد الحذر، وأنه يشبه مشي رجل في غرفة نائم فيها شخص مريض، كل خطوة محسوبة وكل كلمة مقاسة. هذا ليس سلامًا بالمعنى الكامل، بل هدنة.

من المهم أن نفرق بين أربعة أشياء كثيرًا ما تُخلط في الحديث اليومي. الأول المصالحة، وهي قرار بالعودة إلى العلاقة وتجاوز الانفصال. والثاني الغفران، وهو عملية داخلية يتخلى فيها الشخص تدريجيًا عن رغبته في الانتقام أو في الإبقاء على الغضب، وقد يحدث دون مصالحة وقد تحدث مصالحة دونه. والثالث الإصلاح العاطفي، أي أن يُعالج ما انكسر فعلًا من الثقة والأمان بين الاثنين. والرابع التغيير السلوكي، أي أن يتصرف كل طرف بطريقة مختلفة عن السابق في المواقف نفسها. يمكن لشخصين أن يحققا الأول ويتخلفا عن الثلاثة الباقية، وهذا ما حدث لفاطمة وكمال.

فقد عادا لأنهما أرادا أن يعودا، ولأن في البيت ثلاثة أطفال، ولأن بينهما تاريخًا ومودة حقيقية. وقد سامح كل منهما الآخر في أمور محددة، أو ظن ذلك. لكن الإصلاح العاطفي لم يحدث، لأنه كان يستلزم حديثًا عن الأسباب العميقة التي أدت إلى الأزمة، وهو حديث خافا منه. وكان التغيير السلوكي أكثر هشاشة. فبعد شهرين تقريبًا بدأت الصيغ القديمة تعود، لا بصورة حادة، لكن بصورة مألوفة. عاد كمال إلى النكتة حين يضيق، وعادت فاطمة إلى العمل حين يشتد بها الأمر، وعاد كل منهما إلى انتظار ما لا يحصل عليه.

صباح كغيره من الصباحات

لنأخذ مثالًا واحدًا من تلك الأسابيع. صباح يوم أحد، قبل التاسعة بقليل. فاطمة في المطبخ تُعدّ الفطور وتراجع في ذهنها قائمة اليوم: زيارة الجدة، وكي ثياب ياسين، وشراء ما تحتاجه لينا من أدوات مدرسية. وكمال يدخل وهو يحمل هاتفه ويبحث في جيوبه.

«هل رأيتِ مفتاح السيارة؟»

لم تجب فاطمة فورًا. وضعت الملعقة جانبًا، ونظرت إلى الطاولة، ثم قالت بهدوء: «في المكان الذي تتركه فيه دائمًا. وأين هو؟».

ضحك كمال، وكان يقصد أن يخفف الموقف: «لو كنت أعرف أين أتركه لما بحثت عنه». ثم أضاف مازحًا: «ما رأيك أن نعلّق لافتة؟».

لم تبتسم فاطمة. وقالت بصوت بدا لها هادئًا ولم يكن كذلك: «لقد جربنا اللافتة قبل سنوات».

سكت كمال. كان يعرف هذه النبرة. ثم قال بحذر كأنه يمشي على أرض غير مستوية: «لم أقصد شيئًا. فقط أبحث عن المفتاح». ووجد المفتاح بعد دقيقة في

جيب سترته المعلقة على الكرشي، فتناوله وخرج وهو يقول إنه سيعود قبل الظهر. وبقيت فاطمة في المطبخ، تنظر إلى الباب الذي أُغلق بلطف زائد.

ما حدث بين الاثنين في هذه الدقائق القليلة لا يحتاج إلى تحليل كثير ليُفهم. لكنه يستحق التأمل في ما دار في داخل كل منهما. كانت فاطمة تفكر: «هل سيبقى هذا هو الحال؟ أنا أحاول أن أتحدث بهدوء، وهو يعيد النكتة نفسها. كأن شيئًا لم يحدث، كأن كل ما مررنا به كان استراحة بين فصلين». وكان كمال، وهو يجلس في السيارة قبل أن يدير المحرك، يفكر: «لم أفعل شيئًا. سألت عن مفتاح. لماذا يجب أن أحسب كل كلمة في بيتي؟ أنا أحاول أن أكون لطيفًا، وهي تعاملني كأنني مذنب بشيء». لم يقل أي منهما هذه الأفكار للآخر، وكل منهما ذهب إلى يومه وفي صدره جملة غير مكتملة.

ولو أعدنا قراءة المشهد لرأينا أن لا أحد فيه ارتكب شيئًا يُعدّ خطأً بالمعنى الصريح. سؤال عن مفتاح، وجواب مقتضب، ونكتة في غير موضعها، وجملة تذكّر بالماضي. لكن ما حمله هذا الصباح هو ما لم يُقل بعد الأزمة. لقد عادا دون أن يتفقا على كيفية التعامل مع نقاط الاحتكاك القديمة، فعاد كل منهما إلى طريقته القديمة، وإن كان الآن يمشي على أطراف أصابعه. وكان هذا الحذر نفسه، الذي يبدو علامة على الاحترام، يزيد المسافة بينهما، لأن التلقائية التي كانت تجمع بينهما في بداياتهما غابت.

وهنا يقع كثير من الأزواج في فخ يمكن تسميته وهم الصفحة البيضاء. يظن الزوجان أن الأزمة الكبرى، بما فيها من خوف وحزن، ستعمل بمثابة صدمة تعيد ترتيب كل شيء، وأن كل ما كان يزعج سيصبح تافهًا بعد أن رأيا حافة الهاوية. وقد يحدث ذلك فعلًا في بعض الأسر، حين تتحول الأزمة إلى منعطف حقيقي. لكنه لا يحدث تلقائيًا. فالأزمة تكشف ما كان يضغط، لا تعلم الناس كيف يتصرفون بشكل مختلف. ومن دون مهارات جديدة وحوار صريح، تعود العادات القديمة لأنها الأسهل والأكثر ألفة، حتى بين من يعلمون أنها تؤذيهم.

وتحدث الباحث جون جوتمان عن ما يسميه محاولات الإصلاح، وهي أي إشارة، كلمة أو مزحة أو لمسة، يقصد بها أحد الطرفين تخفيف التوتر أثناء الخلاف. وقد وجد أن الأزواج الذين تنجح هذه المحاولات بينهم تكون علاقتهم في العادة أكثر استقرارًا، وأن العامل الحاسم ليس مهارة من يقدمها فحسب، بل استعداد الآخر لقبولها. وفي بيت فاطمة وكمال كانت هناك محاولات إصلاح كثيرة، لكنها كانت تُفهم في الغالب على غير وجهها. فحين كان كمال يمزح ليكسر التوتر، كانت فاطمة تسمع استخفافًا، وحين كانت فاطمة تعد طعامه المفضل بعد خلاف، كان كمال يسمع إقفالًا للموضوع دون حديث. لم يكن أحد يرفض الإصلاح بل كان الاثنان يقدمانه بلغتين لا يترجمها أحد.

وهناك مسألة المسؤولية التي لا بد من التطرق إليها بشيء من الحذر. فبعد أي أزمة، يميل كل طرف إلى تقدير أنه قدّم أكثر مما قدم الآخر. تقول فاطمة لنفسها إنها عادت وهي لا تزال تحمل عبء البيت كله، ويقول كمال لنفسه إنه ابتلع كبرياءه وطرق الباب أولًا. وكل منهما يملك وجهًا من الحقيقة. لكن الإحساس بأن الطرف الآخر مدين لك يجعل الاعتذار الصريح أصعب، لأن الاعتذار يعني التنازل عن موقع الدائن. ومن دون اعتذار حقيقي يتضمن اعترافًا بما أثر في الآخر، لا فقط بما حدث، يبقى الجرح مفتوحًا مهما كان التصرف لاحقًا مهذبًا.

أبناء يتعلمون الحذر

لم يكن الأولاد ينتظرون من والديهم تفسيرًا، فقد تعلموا في الأسابيع الأخيرة أن التفسيرات لا تأتي. كانوا ينتظرون شيئًا آخر، علامات صغيرة تدل على أن الأمان عاد فعلًا. وكان كل منهم يقرأ هذه العلامات بطريقته.

كانت ريم تراقب اللمسات. تعرف أن أباها كان يضع يده على كتف أمها وهو يمر بها في المطبخ، حركة خفيفة وسريعة لم تكن تلتفت إليها من قبل. غابت هذه الحركة بعد العودة، ثم عادت بعد ثلاثة أسابيع، فشعرت ريم بارتياح لم

تعترف به لأحد. وقالت لنفسها إن هذا أمر تافه، وإن من الغباء أن يتعلق قلبها بيد على كتف. لكنها حين رأت اليد غائبة مرة أخرى بعد خلاف صغير حول موعد الغداء، عرفت أن البيت يمشي على خيط، وأن الخيط ما زال رقيقًا. ومن تلك اللحظة صارت تتصرف بحذر مع كل عاطفة، تفرح بها بنصف قلب، وتتهيأ لفقدانها كأنها مستعارة.

وكان ياسين يعدّ الأيام. لم يكن يفعل ذلك بطريقة واعية، لكنه كان يعرف دائمًا كم مضى منذ آخر مرة ارتفع فيها صوت في البيت. بعد أسبوعين شعر بأن الأمور على ما يرام، وبعد أربعة أسابيع شعر بأنه يحق له أن يرتاح قليلًا. ثم جاء مساء ظهر فيه التوتر على وجه أمه وهي تقرأ رسالة على هاتفها، فرأى الجميع كيف تغيرت ملامحها. لم يقل أحد شيئًا، لكنه عاد في تلك الليلة إلى جدوله وأضاف إليه ساعة أخرى من المراجعة. كأن العمل الزائد يستطيع أن يسدّ فجوة لا علاقة لها بالدراسة.

أما لينا فقد صارت أكثر التصاقًا بأبيها. كانت تنتظره عند الباب كل مساء، وتسأله كل يوم إن كان سيذهب إلى مكان آخر، وتضحك بصوت أعلى حين يمزح. ولاحظت فاطمة ذلك وانزعجت، لا من لينا، بل من نفسها. قالت لكمال ذات ليلة وهما في الغرفة: «الطفلة تحاول أن تتأكد من وجودك». فأجاب بضحكة قصيرة: «وأنا موجود. ما الخطأ في ذلك؟». لم تجد الجواب في تلك اللحظة، لأن الخطأ لم يكن في وجوده، بل في أن طفلة في السابعة تحتاج إلى التأكد كل يوم. وفهم كمال ما قصدته بعد أيام، لا حين قالته، بل حين رأى لينا تقف عند الباب وهي تنظر إلى ساعة الجدار.

ويستحق هذا السلوك أن نتوقف عنده. فمن المعروف في الأبحاث المتعلقة بنمو الأطفال أن الطفل الذي مرّ بتجربة عدم يقين في علاقته بالمقربين يميل إلى البحث عن دلائل متكررة على الثبات. وهذا ليس خللًا بل استجابة مفهومة، لكنها تعني أن الطمأنة التي يكفي أن تُقدَّم مرة واحدة لطفل آمن، يلزم تقديمها

بصيغ متنوعة ومتكررة لطفل مرّ بخبرة مهزوزة. وهذا يحتاج إلى صبر وتفهم، لا إلى استياء من كثرة الأسئلة. وكان أصعب ما في الأمر أن الأسئلة المتكررة تتعب الكبار المتعبين أصلًا، فيجيبون بجفاف أو بتململ، فيزداد الطفل قلقًا.

وهكذا انقسم البيت في الواقع إلى مستويين. على السطح، حياة منتظمة وأعياد ووجبات وواجبات. وفي العمق، ثلاثة أطفال يتدربون على الحذر. ولا يعني هذا أن الوالدين فشلا. فقد كانا يبذلان جهدًا حقيقيًا، لكنهما كانا يعتقدان أن الأمور تُحلّ بالعودة إلى الروتين، بينما كان أولادهما يعتقدون أن الروتين قد ينهار في أي لحظة.

ولعل أقسى ما في هذه المرحلة أنها لا تبدو أزمة. لا شيء يُكسر ولا أحد يغادر. تجري الحياة بسلاسة ظاهرة. تُقام الأعياد، وتُشترى هدايا النجاح، ويُصطحب الأولاد إلى بيت الجدة. ومن يراهم من بعيد يظن أن الأسرة تجاوزت العاصفة. غير أن الذين يعيشون في الداخل يعرفون أن شيئًا ما بقي معلقًا. وكان هناك خطر أن يتحول هذا التعليق إلى حالة دائمة، يتقن فيها كل من الزوجين أداء دوره دون أن يتواصل حقًا مع الآخر.

ولا يعني هذا أن العودة كانت خطأ. فليس في هذا الكتاب ما يقول إن الانفصال أفضل من الاستمرار أو العكس، ولا ما يقول إن البقاء معًا فضيلة بحد ذاته. قد يكون الانفصال في بعض الأسر قرارًا سليمًا يحمي أفرادها، وقد تكون العودة في أسر أخرى بداية حقيقية. المهم هو ما يحدث بعد القرار. فمن عاد دون أن يعالج ما أدى إلى الأزمة سيجد نفسه بعد أشهر أمام الأزمة ذاتها بوجه أخف، ومن انفصل دون أن يفهم ما حدث سيحمل الأنماط نفسها إلى علاقته القادمة. وفي الحالتين لا بد من أن يسأل الإنسان نفسه سؤالًا أصعب من سؤال البقاء أو الرحيل: ما الذي سأفعله بشكل مختلف؟

لم يطـرح كمـال ولا فاطمـة هـذا السـؤال على نفسـيهما بتلـك الصـيغة. كانـا منشغلين بالعمل والمدرسة والفواتير ومواعيد الأطباء. وبقيت الأسباب العميقـة تعمل في الظل، وبقي الأولاد يتعلمون من هذا البيت. وفي الفصل التالي سنترك الوالدين قليلًا لنسأل كيف يتعلم الأطفال ما لا يعلمه لهم أحد، وكيف يتحول جو البيت إلى درس يُحفظ دون أن يُقال.

الفصل الثامن
أطفال يتعلمون دون أن يُعلَّموا

لم تقل فاطمة لأبنائها يومًا إن الحب يُبرهن عليه بالعمل، ولم يقل لهم كمال إن الصمت علامة خطر. لو سُئل أي منهما عما يريد أن يعلّمه لأولاده عن العلاقات، لأجاب بكلام معقول عن الاحترام والصدق والمسؤولية. لكن ما تعلمه الأبناء لم يأتِ من الكلام. جاء من مشاهد يومية صغيرة لم ينتبه أحد إلى أنها دروس، مثل طريقة قول الأب مساء الخير للأم حين يدخل، وكيف تُسلِّم الأطباق في المطبخ، وماذا يحدث حين يُسكب كوب من الماء على الطاولة، ومن يبادر بالكلام بعد خلاف ومن ينتظر.

يسمي علماء النفس هذه العملية التعلم بالملاحظة. وكان عالم النفس ألبرت باندورا من أشهر من درسوها، فقد بيّنت تجاربه الشهيرة في ستينيات القرن الماضي أن الأطفال يقلدون سلوكًا شاهدوه عند الكبار حتى حين لا يُطلب منهم ذلك ولا يُكافأون عليه. ولا تعني هذه التجارب أن الطفل نسخة من والديه، فالنتائج تختلف بحسب ما يراه الطفل مفيدًا أو مقبولًا أو يشبهه. لكنها تفسر لماذا يصعب على الوالدين أن يعلّما أولادهما شيئًا يناقضه سلوكهما. فمن يقول لابنه إن الغضب ينبغي أن يُعبِّر عنه بالكلام ثم يقضي أيامًا صامتًا حين يغضب، يعطيه رسالتين، ويتعلم الطفل في الغالب من الرسالة الأقوى.

ماذا يلتقط الطفل حين يشاهد

يقسم باندورا عملية التعلم بالملاحظة إلى أربع مراحل متتابعة. الأولى الانتباه، فلا يتعلم الطفل إلا ما يلاحظه، وهو يلاحظ أكثر ما يتصل بمن يحبهم ويعتمد عليهم. والثانية الاحتفاظ، أي أن يختزن ما رآه في ذاكرته على شكل صورة أو قاعدة. والثالثة إعادة الإنتاج، أي أن يمتلك القدرة على أداء ما رآه. والرابعة الدافع، أي أن يرى لما رآه فائدة أو نتيجة تجعله يرغب في تكراره. ومن أهم ما أضافه باندورا أن الطفل لا يتعلم من مشاهدة السلوك وحده، بل من مشاهدة ما يترتب عليه. فإذا رأى أن سلوكًا ما يؤدي إلى مكافأة تعلم أنه ينفع، وإذا رأى أنه يؤدي إلى عقاب تعلم أنه يضر، دون أن يجربه بنفسه.

فلنتخيل ما يعنيه هذا في بيتنا. كان ياسين يرى أن أمه تحصل على الهدوء حين تنشغل بالعمل. وكانت لينا ترى أن أباها يحصل على الابتسامات حين يمزح. وكانت ريم ترى أن الحوار الصريح بين والديها يؤدي في الغالب إلى توتر، وأن الصمت بعده يستمر أيامًا. لم يكن أي منهم يقرر أن يتعلم هذه الدروس. لكن الانتباه والاحتفاظ والدافع كانت تعمل بصمت، وكل ما شاهدوه كان يستقر في مكان ما.

وكان هناك مشهد يتكرر ولا يلتفت إليه أحد. كل ليلة جمعة، بعد العشاء، يجلس كمال على الأريكة ويفتح التلفاز، وتجلس فاطمة بجانبه تطوي الغسيل. لا يتحدثان كثيرًا، لكن الجو يكون هادئًا. وكانت لينا، وهي بعد صغيرة، تجلس عند أقدامهما وترى الاثنين معًا. وما كانت تتعلمه من ذلك المشهد مختلف عما يتوقع أي منهما. كانت تتعلم أن الحميمية هي أن تجلس بجوار أحد دون أن تتكلم. وهذا درس جميل في ذاته، وليس بالضرورة مضرًّا. لكنه حين يقترن بدروس أخرى عن الصمت بوصفه نذير خطر، يصبح مشوشًا. فالصمت عند لينا يعني أحيانًا الأمان، وأحيانًا العاصفة، ولا أحد يشرح لها الفرق.

ومن النقاط التي يشدد عليها باندورا أن الأطفال يتأثرون بمن يرون فيهم قدوة، أي من يحبونهم أو يحترمونهم أو يرونهم أقوياء. وهذا يعني أن تأثير الوالدين لا يأتي من كونهما والدين فحسب، بل من علاقة الطفل بهما. فكلما قوي التعلق، قوي الأثر. ولهذا لا نستطيع أن نقول إن الأطفال سيقلدون ما رأوه بالضرورة، فقد يقلدون جزءًا ويرفضون جزءًا، وقد يتبنون ما أعجبهم في أحد الوالدين ويتجنبون ما أزعجهم في الآخر. وربما كانت هذه الانتقائية هي أكثر ما يمنح الأمل، لأنها تعني أن الطفل ليس نسخة، بل مؤلف يعيد ترتيب ما أعطيه.

وفي هذا السياق، يفيد أن نفكر في ما يسميه المختصون الأجواء الأسرية، أي الحالة العاطفية العامة للبيت، ما إذا كان آمنًا أو متوترًا، مفتوحًا أو حذرًا. يدخل الطفل كل صباح إلى هذا الجو كما يدخل إلى غرفة، ويقرأ درجة الحرارة قبل أن يقرأ أي شيء آخر. وفي بيت فاطمة وكمال كان الجو في معظم الأيام دافئًا ومنظمًا، لكنه في بعض الأيام كان يحمل ما يشبه الانتظار. لم يكن هناك صراخ، وإنما كان هناك انتباه زائد في الهواء، شعور بأن شيئًا قد ينكسر إن تحرك أحد بسرعة.

وتقدم نظرية الأنظمة الأسرية، التي وضع أسسها الطبيب النفسي موراي بوين، طريقة أخرى لفهم ما يجري. فهي ترى الأسرة وحدة عاطفية واحدة، يؤثر كل فرد فيها في الآخرين ويتأثر بهم، فلا يمكن فهم أي منهم منفصلًا عن الباقين. ومن مفاهيمها ما يسمى المثلثات، وهو ميل شخصين متوترين إلى إشراك طرف ثالث لتخفيف التوتر بينهما. وقد يكون هذا الطرف ابنًا يُطلب منه، بشكل مباشر أو ضمني، أن يكون الوسيط أو الحليف أو مصدر الفرح. وفي بيتنا هذا، ظهر شيء من ذلك على نحو خفيف. فكانت فاطمة تحكي لريم أحيانًا ما يضايقها من أبيها، وكان كمال يلجأ إلى لينا حين يريد أن يضحك، وكانت كل من الحالتين بريئة في ظاهرها، لكنها كانت تضع على كتفي طفل وزنًا أكبر من حجمه.

مثلث في المطبخ

في ليلة من ليالي الشتاء، كانت ريم تُنهي واجباتها على طاولة المطبخ حين دخلت أمها لتُعدّ الشاي. جلست فاطمة قبالتها دون أن تتكلم، ثم قالت وهي تنظر إلى الكوب بين يديها: «أبوك لا يفهم أن البيت لا يسير وحده».

رفعت ريم رأسها. «ماذا حدث؟».

«لا شيء. لا شيء يُذكر». ثم، بعد لحظة: «طلبت منه أمس أن يتصل بالمدرسة بشأن لينا فنسي. ثم قال لي إنني أعامله كأنه موظف عندي». وضحكت ضحكة قصيرة ليس فيها مرح. «لا أعرف لماذا أحكي لك هذا. أنتِ ما زلتِ صغيرة».

قالت ريم: «لست صغيرة». وكانت تعني ذلك. شعرت في تلك اللحظة بشيء ثقيل ومرضٍ في آنٍ واحد. ثقيل لأنها صارت تعرف أكثر مما تريد. ومرضٍ لأن أمها اختارتها هي لتقول لها هذا. ولم تدرك إلا بعد سنوات أن هذا الامتياز كان له ثمن، وأنها منذ تلك الليلة بدأت تقرأ أباها بعين أمها.

وفي ليلة أخرى، كانت لينا تجلس على ركبتي أبيها في الصالة، وهو يحكي لها قصة عن رجل يضيّع نظارته كل صباح. ضحكت حتى سقطت دموعها. دخلت فاطمة وقالت إن موعد النوم قد حان، فقال كمال بصوت خفيض كأنه يهمس لشريك في سرّ: «أمك تريد أن تنهي المتعة». ضحكت لينا مرة أخرى، ثم نظرت إلى أمها بقلق. لم يقصد كمال شيئًا سوى المداعبة. لكن الطفلة، في ثانية واحدة، وجدت نفسها بين اثنين، تشارك أحدهما في ضحكة، وتخشى من الآخر ردة فعل.

هذا ما يسميه موراي بوين التثليث. فهو يرى أن العلاقة بين شخصين تميل إلى الاستقرار حين تكون هادئة، وحين يرتفع التوتر بينهما يسعى أحدهما، أو كلاهما، إلى إشراك طرف ثالث يخفف الضغط. قد يكون الثالث صديقة أو أمًّا أو عملًا أو طفلًا. والتثليث ليس مرضيًا بحد ذاته، فنحن جميعًا نلجأ إلى من نثق

بهم حين نتعب. المشكلة حين يصبح النمط الوحيد، وحين يكون الثالث طفلًا لا يملك أن يرفض ولا أن يفهم ولا أن يضع حدودًا.

ويرتبط بذلك مفهوم آخر في نظرية بوين، هو تمايز الذات. وهو لا يعني الانفصال أو البرود، بل القدرة على أن يبقى الإنسان نفسه داخل العلاقة. أن يحب دون أن يذوب، وأن يختلف دون أن يهدد، وأن يتحمل قلق الآخر دون أن يتبناه ويتحول إلى مصدر لتهدئته. فمن لديه تمايز أكبر يستطيع تنظيم انفعالاته دون أن يحمّلها لمن حوله، ويستطيع الاستماع إلى الغضب دون أن ينهار. وكلما قلّ التمايز، زاد ميل الأسرة إلى أن تتحرك كجسد واحد، إذا ارتجف فيه عضو ارتجف الجميع.

لم تكن فاطمة تحاول أن تستعمل ريم، وكمال لم يكن يحاول أن يستميل لينا. كلاهما كان يبحث عن راحة صغيرة في بيت ثقيل. لكن الأبناء التقطوا الرسالة التي لم تُقَل، وهي أن مشاعر الكبار شأنهم، وأن عليهم هم أن يعرفوا كيف يتصرفون حيالها.

وينبغي أن نقول هنا بوضوح إن الأبناء لا يتحملون أي مسؤولية عن إصلاح علاقة والديهم. وهذا مبدأ لا يمس الواقع القائم، فبعضهم يحاول ذلك على أي حال. تحاول لينا أن تضحك الجميع، ويحاول ياسين ألا يسبب أي إزعاج، وتحاول ريم، على طريقتها المتمردة، أن تكسر الجمود بافتعال خلاف مع أمها حتى ينتقل الاهتمام من المسألة الأكبر إلى المسألة الأصغر. لا أحد منهم يفعل ذلك عن وعي كامل. هم يفعلون ما يجدونه ممكنًا. وحين يدرك البالغون أن هذه السلوكيات استجابات لجو البيت لا طبائع ثابتة، يصبح من الأيسر أن يفهموها دون أن يحكموا على أصحابها.

وهناك مستوى آخر من التعلم يستحق التوقف عنده، وهو تعلم ما لا يحدث. فالطفل لا يتعلم فقط مما يراه، بل أيضًا مما لا يراه أبدًا. إذا لم ير أبناء فاطمة

وكمال والديهما يعتذران لبعضهما بعبارات صريحة، تعلموا ضمنًا أن الاعتذار ليس جزءًا من العلاقات. وإذا لم يروهما يتحدثان عن الخلاف بعد أن ينتهي، تعلموا أن الخلافات تُنسى ولا تُفهم. وإذا لم يسمعوا أحدهما يقول للآخر بصوت عادي، دون مناسبة، إنه يحبه أو يقدره، تعلموا أن الحب يظهر في الأعياد أو لا يظهر. لا يعني هذا أن البيت كان فقيرًا في العاطفة، بل أن ما خلا منه ترك فراغات تعلم الأطفال أن يملأوها بأنفسهم.

وفي المقابل، كان البيت غنيًا بأشياء كثيرة جيدة لا ينبغي أن تُنسى. فقد رأى الأبناء أمهم تعمل بجد وتفي بكل ما تعد به، وتعلموا منها أن الكلمة تُحترم. ورأوا أباهم يحوّل الأيام الثقيلة إلى حكايات يضحك لها الجميع، وتعلموا منه أن الفرح ممكن في أصعب الظروف. وهذه دروس حقيقية تحملها كل ابنة وكل ابن في داخله. وكل بيت يعلّم شيئًا نافعًا وشيئًا مؤلمًا في الوقت نفسه، ومن الظلم أن نقتصر على أحدهما.

لكن الأطفال، حين يتعلمون من البيت نفسه، لا يستخلصون الدرس نفسه. فالأخ والأخت اللذان يعيشان تحت سقف واحد لا يسكنان في الحقيقة البيت نفسه، فلكل منهما موقعه فيه وعمره وطبعه وما يلتقطه من بين ما يُعرض عليه. وهذا هو موضوع الفصل القادم، حيث نتعرف إلى ريم وياسين ولينا واحدًا واحدًا، ونسأل كيف خرج من بيت واحد ثلاث تعريفات مختلفة للحب.

الفصل التاسع

ثلاثة أطفال وثلاثة فهوم للحب

لو وضعنا ريم وياسين ولينا في غرفة واحدة وسألناهم عن معنى الحب، لخرجنا بثلاث إجابات يصعب أن نصدق أنها من بيت واحد. تقول ريم إنه أن يفهمك أحد دون أن تشرح. ويقول ياسين إنه كلمة كبيرة لشيء يُحسن تأجيله. وتقول لينا، وهي تنظر إلى وجوه الجميع قبل أن تجيب، إنه ألا يغضب أحد. ولا ينبغي أن نسارع إلى القول بأن كل جواب نتيجة مباشرة لما رأوه في البيت، فكل واحد منهم إنسان له مزاجه وعمره وأصدقاؤه وتجاربه، والبيت جزء من القصة وليس القصة كلها. ما سنفعله في هذا الفصل هو أن نرى كل واحد منهم بما هو عليه أولًا، ثم نسأل ما الذي يمكن أن يكون للبيت فيه من أثر.

ريم: التي تريد الحب ولا تعرف كيف تقترب منه

كانت ريم، منذ كانت صغيرة، طفلة لا تقبل أن يُقال لها ماذا تفعل. إذا قيل لها ألبسي السترة خرجت دونها وهي ترتجف، وإذا قيل لها إن الواجب ينتظر كتبته في اللحظة الأخيرة بأفضل خط. وكانت في الوقت نفسه تحتفظ بدفتر صغير تلصق فيه صورًا وجملًا تعجبها، وتبكي عند مشاهد الوداع في الأفلام ثم تنكر ذلك بشدة. وعندما كبرت صارت هذه الازدواجية أكثر وضوحًا. هي تحلم بشخص

يعرف ما تحتاجه دون أن تتكلم، يفاجئها بشيء صغير يدل على أنه يراها حقًا، ويقول لها في اللحظة المناسبة كلمة تصيب الهدف. وتستخف في العلن بفكرة الحب الكبير وتسميها حكايات للمراهقات.

وحين جاء من اقترب منها فعلًا، ارتبكت. قابلت زميلًا في الجامعة كان يتصل بها كل مساء ليسأل عن يومها وينتبه لتفاصيل قالتها قبل أسابيع، فسرها في البداية على أنها نعمة، ثم بدأت تشعر بالاختناق. صارت تتأخر في الرد وتختلق أعذارًا، وعندما سألها عما يجري قالت له إنه يقترب كثيرًا. وهي في قرارة نفسها تعرف أنه لم يفعل شيئًا خطأ، وتعرف أنها هي التي أنهت ما أرادته، ولا تعرف لماذا. وبعد أسابيع، عندما تعلق قلبها بشخص آخر كان يتأخر في الرد ولا يعدها بشيء، اكتشفت أن ما يشدها هو ما لا تضمنه.

لا تكفي حكاية البيت لتفسير هذا كله. فقد كانت ريم شديدة الاستقلالية قبل أن يحدث أي شيء بين والديها، وكانت أقرب في طبعها إلى أمها في عنادها وإلى أبيها في حساسيتها، وهذه التركيبة بحد ذاتها تصنع إنسانة صعبة المراس عاطفيًا. كما أن سن المراهقة بحد ذاته مرحلة يحاول فيها الإنسان أن يؤكد وجوده المستقل، والأزمة التي وقعت وهي في الخامسة عشرة صادفت هذه المرحلة تحديدًا. ومع ذلك يمكن أن نتساءل. فقد رأت في بيتها نمطين من الحب كل منهما ناقص بحسب كلام الآخر، حب صامت يعمل وحب ناطق يطلب. ومن الطبيعي أن تتولد عند من شاهد ذلك رغبة في حب يجمع الاثنين، وشك عميق في أن هذا ممكن. وهذا التناقض الداخلي، رغبة في الاكتمال وخوف من الاقتراب، هو ما نسميه في هذا الكتاب المثالية الرومانسية، وليس عيبًا في شخصيتها بل هو طريقتها في أن تحمي نفسها من خيبة لا تريد أن تعيشها.

ما تقوله ريم حين لا يسمعها أحد

في دفتر ريم الصغير، بين الصور والجمل المقتطعة، صفحة مكتوبة بخط سريع لا تقرأه لأحد: «أنا لا أريد أن أكون مثل أمي. لا أريد أن أفعل كل شيء ثم أنتظر أن يفهم أحد. وأنا لا أريد أن أكون مثل أبي، أطلب كلمة ولا أعرف كيف أقول ما عندي. أريد أن أكون شيئًا ثالثًا لا أعرف اسمه. شخصًا يقول ويفعل ويُفهَم».

ثم، تحت هذه الجملة بأسطر قليلة، كتبت: «لماذا أهرب حين يقترب أحد؟ هل لأنني أخاف أن يرى أنني لست كما يتخيل؟ أم لأنني أخاف أن أحتاجه فيتركني؟».

هذه أسئلة لا تطرحها ريم بصوت عال. وتستمر في الحياة اليومية بالشخصية التي يعرفها الجميع، متمردة وقوية وساخرة. غير أن من يقرأ دفترها يعرف أن المتمردة خائفة من أن يفوتها أمر ما، وأن الرغبة في الاستقلال عندها ليست نقيض الرغبة في القرب بل رفيقتها. وهو ما يجعلها مثالًا واضحًا على ما يسميه الباحثون الصراع بين الحاجة إلى الارتباط والحاجة إلى الاستقلالية، وهما حاجتان إنسانيتان أساسيتان، يختلف الناس في الموازنة بينهما.

وهناك ما يضيف تعقيدًا إلى حالتها. فقد رأت ريم في بيتها حبًا لا يُرى حتى يختفي، ورأت في الأفلام حبًا يُقال بكل شيء. وهي تريد الاثنين معًا، ولا تعرف أن أحدًا لم يمتلكهما معًا بالكامل. وهكذا يتحول معيارها إلى ما يشبه الوهم الجميل، يرفع سقف توقعها حتى لا يبلغه بشر، ثم تخيب حين لا يبلغه أحد.

ياسين: الذي اختار الطموح

كان ياسين طفلًا هادئًا ومرتبًا، يرتب أقلامه حسب أطوالها ويحفظ جدول الضرب قبل أن يطلبه منه أحد. وكان يحب الأشياء التي تقبل القياس، فالدرجة

رقم والمسافة رقم والوقت رقم، وهذه الأشياء لا تتغير بمزاج أحد. وحين وصل إلى المرحلة الثانوية كانت خطته واضحة، دراسة مكثفة ثم منحة ثم عمل مرموق في الخارج إن أمكن. وحين حاولت ريم يومًا أن تمازحه بسؤاله عمن يعجبه في صفه، نظر إليها كمن سمع سؤالًا عن موضوع بعيد، وقال إن لديه ما يشغله عن ذلك.

وحين يتحدث ياسين عن موقفه من الحب يتحدث بمنطق متماسك. يرى أن العلاقات العاطفية تستهلك وقتًا وطاقة ذهنية، وأن من لا يحتاج إليها الآن ينبغي ألا يستعجلها. ويرى أن الطموح قيمة حقيقية عنده وليس مجرد هروب، وهو محق في أن كثيرًا من الناس يبلغون أهدافهم وهم أعزب أو غير مرتبطين وليسوا أقل سعادة. وهذه نقطة يجب احترامها. لا يوجد دليل على أن كل من يؤجل الارتباط يخفي خوفًا.

غير أن السؤال الصادق هو ما إذا كان قراره حرًا تمامًا. فياسين نشأ في بيت رأى فيه الحب يستنزف أحيانًا من يمارسه، وسمع في ليلة من الليالي ما لم يكن ينبغي أن يسمعه عن سبب غضب أمه من أبيه. وفي الأسبوعين اللذين غاب فيهما أبوه تعلم شيئًا ربما لم يصغه بكلمات: أن العلاقة التي يعتمد عليها استقرار الإنسان قد تنهار، وأن الدراسة والإنجاز لا يخذلان. وليس هذا استنتاجًا مؤكدًا، فقد يكون ما فعله ياسين هو ببساطة اتباع ميله الطبيعي إلى الأشياء المنظمة. لكن التمييز مهم. الطموح قيمة حين يختاره الإنسان لأنه يريده، وهو آلية حماية حين يختاره لأن البديل يخيفه. وفي كثير من الأحيان يكون الاثنان ممزوجين، ولا يعرف صاحبهما أين ينتهي هذا وأين يبدأ ذاك.

ولا يمكن وصف ياسين بالجفاف. هو أول من يهب لمساعدة لينا في واجباتها، وهو من يتصل بأمه في الأسبوع الذي تمرض فيه، وهو من حفظ قصة أبيه عن بداياته وصار يرويها في الأعراس. إنه لا يتجنب المشاعر بقدر ما يضعها في مكان يستطيع أن يضبطه، وهو المكان الذي تكون فيه العلاقات واضحة وتكون الأدوار

محددة. وهذه طريقة مشروعة، لكنها قد تضيق عليه يومًا إذا وجد نفسه أمام علاقة لا تقبل الجدولة.

ما يقوله ياسين لنفسه

لو سألنا ياسين لماذا لا يرغب في علاقة عاطفية الآن، لأجاب بصوت متزن: «لأن عندي أولويات». ولو سألناه لماذا يبدو متضايقًا حين يسمع أن زميلًا ارتبط بزميلة، لقال إنه لا يرى لماذا يحتفل الناس بشيء مؤقت.

أما ما يدور في رأسه حقًا فهو أكثر تعقيدًا. «أنا لست خائفًا. أنا فقط أرى الأمور بوضوح. رأيت أن شخصين طيبين، يحبان بعضهما، يعيشان معًا عشرين سنة، ثم يقفان على باب الانفصال بسبب مفتاح سيارة ونكتة. هذا لا يستحق. لو كان الحب يؤدي إلى هذا فالأفضل ألا أبدأ». ثم يتوقف قليلًا ويضيف بصدق لا يعترف به أمام الناس: «وماذا لو كنت مثل أبي؟ ماذا لو كنت أحتاج إلى شخص يقول لي ما أريد سماعه، ثم أعجز عن أن أقول شيئًا في المقابل؟ وماذا لو كنت مثل أمي، أفعل كل شيء ولا يفهم أحد؟».

هذه الأسئلة لا يطرحها ياسين على أحد، وقد لا يطرحها على نفسه إلا قليلًا. لكنها تكشف أن قراره ليس حيادًا. هو يرى في العلاقة عاطفيًا ما يشبه ما تعلمه في البيت، ويستنتج أن أفضل ما يفعله هو أن يؤجل الأمر حتى يكون لديه ما يضمن به النتيجة. وهذا موقف عقلاني في ظاهره، لكنه يقوم على افتراض غير معلن بأن العلاقات يمكن أن تُدار كما تُدار المشاريع، وأن من أتقن الإعداد سيأمن النتيجة.

وفي الوقت نفسه، يجب ألا نُسقط على ياسين ما لا يقوله. فقد يكون صادقًا حين يتحدث عن أولوياته، وقد يكتشف بعد سنوات أن الطموح الذي اختاره لم

يكن هروبًا بل وجهة. إن ما نعرضه هنا هو أحد التفسيرات الممكنة لا الوحيد، وياسين نفسه هو الوحيد الذي يستطيع أن يقول أيها أقرب إلى الحقيقة.

لينا: التي تخاف من الصمت

تعرف لينا قبل أي أحد في البيت متى يتغير الجو. تلاحظ أن أباها دخل أسرع من المعتاد، وأن أمها أغلقت الخزانة بقوة أكبر قليلًا، وأن أحدًا لم يرد على سؤال طُرح على المائدة. وحين يحدث ذلك تبدأ أسئلتها المألوفة: هل أنتِ غاضبة؟ هل فعلت شيئًا؟ لماذا لا أحد يتكلم؟ وإذا قيل لها لا شيء، سألت مرة أخرى بصيغة ثانية، كأن الجواب الأول لم يكن كافيًا. وكانت تعتذر أحيانًا عن أشياء لا تعرف ما هي، وتقول في ما بعد إنها شعرت أن عليها أن تفعل ذلك.

ولها طرق أخرى. تحكي نكتة في اللحظة التي يطول فيها السكوت، وتقترح لعبة، وتحضر لأبيها كوب الماء وتسأله إن كان بخير، وتنظر إلى وجه أمها وهي تقدم لها رسمًا جديدًا. وهي في ذلك كله لا تتصنع، فهي تريد فعلًا أن يكون الجميع مرتاحين. غير أنها تتقن هذه المهمة حتى تغدو أبرع في قراءة مزاج الآخرين من قراءة مزاجها. وإذا سألتها ما الذي تريدينه، تفكر طويلًا ثم تقول إنها لا تعرف، وإن أي شيء يناسب الجميع يناسبها.

ويحتاج الإنصاف هنا إلى تمييز دقيق بين ثلاثة أشياء كثيرًا ما تُخلط. الأول حساسية الطفل بوصفها سمة مزاجية، وهي موجودة عند بعض الأطفال منذ ولادتهم، فهم يلتقطون التفاصيل وينفعلون بسرعة ويتأثرون بالأجواء أكثر من غيرهم. والثاني استراتيجيات التكيف المكتسبة، أي ما يتعلمه الطفل ليحمي نفسه ويحافظ على الأمان من حوله، كالانتباه الزائد إلى المزاج وإرضاء الآخرين وطلب الطمأنة. والثالث المعاناة النفسية المستمرة التي تؤثر في حياة الطفل اليومية، وهي التي تستدعي استشارة مختص. ولا يملك هذا الكتاب ما يسمح له بأن يضع لينا في أي من هذه الخانات، ولا يقصد ذلك. ما يمكن قوله إن في سلوكها

عناصر من الأولين على الأقل، وإن ما يلفت النظر فيها ليس حساسيتها وإنما تحول اهتمامها إلى مراقبة الآخرين على حساب الانتباه إلى نفسها، وإنها تقول إنها لا تعرف ما تريد.

ومن المعروف أن الأطفال الذين يعيشون في أجواء متوترة يتعلمون أحيانًا أن اليقظة تعني الأمان، فمن يلاحظ مبكرًا أن العاصفة قادمة يستطيع أن يستعد لها أو أن يمنعها. ثم يصبح هذا الانتباه عادة تبقى حين تزول أسبابه، وتتحول الحاجة إلى الطمأنة إلى طقس يتكرر دون أن يهدأ صاحبه حقًا، لأن الطمأنة التي تأتي من الخارج تنتهي سريعًا، ولا يمنحها الإنسان لنفسه ما لم يتعلم ذلك. ولا يعني هذا أن لينا ستظل كذلك. فالأطفال يتغيرون كثيرًا، وتتبدل استراتيجياتهم بتغير بيئتهم وعلاقاتهم، وقد تكون في الغد أكثر قدرة على احتمال الصمت مما يتوقع أحد.

ثلاثون ثانية من الصمت

لنقف الآن عند مشهد واحد يصور ما نتحدث عنه. مساء ثلاثاء عادي، العشاء على الطاولة، والجميع يأكل. يسأل كمال عن اختبار ياسين، فيجيب ياسين باختصار. تسأل فاطمة لينا إن كانت أنهت واجبها، فتومئ لينا. ثم يسود صمت.

ثلاثون ثانية فقط. لكن لو كان بالإمكان تسجيل ما يدور في أذهان الجالسين لسمعنا ما يلي.

كانت لينا تقول لنفسها: «هل تشاجرا قبل أن نجلس؟ لم أسمع شيئًا. لكن أمي لم تنظر إلى أبي حين وضعت الطبق. هل هذا يعني شيئًا؟ ربما فعلتُ شيئًا. هل نسيت أن أرفع حقيبتي من الصالة؟ ماذا لو قلت شيئًا مضحكًا؟ ماذا لو ضحكوا؟ لكن ماذا لو لم يضحكوا؟». ثم رفعت رأسها وقالت: «سألني المعلم اليوم

عن اسم عاصمة بلد غريب فعرفته». ولم يكن ذلك حقيقيًا تمامًا، إذ عرفته بعد أن سألها المعلم مرتين. لكنها أحسّت بأن الجو يحتاج إلى شيء.

ابتسم كمال: «أحسنتِ». وعاد الصمت أخف قليلًا.

أما فاطمة فلم تكن غاضبة. كانت متعبة. كانت تفكر في فاتورة المدرسة وفي موعد زيارة الجدة، وكان الصمت عندها مريحًا، هو الوقت الوحيد في اليوم الذي لا يطلب منها شيئًا. ولم يخطر ببالها أن أحدًا على الطاولة يقرأ هدوءها كإشارة. وكان كمال يظن أن صمتها يعني أنها لا تريد أن تتحدث إليه، فتحدث إلى لينا بدل أن يتحدث إليها.

في ثلاثين ثانية، أدت لينا مهمة لم يطلبها منها أحد. خففت جوًا لم يكن يحتاج إلى تخفيف في الحقيقة، وفعلت ذلك بإتقان طفلة تدربت عليه كثيرًا. وهنا بالضبط تكمن المفارقة. فما بدا لفاطمة هدوءًا سلميًا عاد بنتيجة معاكسة على لينا، التي ظلت في الساعة التالية تقلب سؤالًا واحدًا: هل نجحتُ في ما فعلت؟

يمكننا أن نسمي ما تفعله لينا في هذه اللحظة تنظيمًا عاطفيًا للآخرين، وهو تنظيم يقوم على أن يتحمل الطفل مسؤولية مزاج من حوله. وهو يختلف عن التعاطف الصحي، الذي يعني أن يلاحظ الطفل مشاعر غيره دون أن يرى نفسه مسؤولًا عنها. فالتعاطف يكبر مع الطفل ويصبح مصدر قوة، أما التنظيم القهري لمشاعر الآخرين فقد يستنزفه، ويعلمه أن راحته الشخصية تأتي بعد راحة الجميع.

ليلة على السطح

ذات ليلة من ليالي الصيف، صعد الإخوة الثلاثة إلى سطح البيت لأن الكهرباء انقطعت والحرارة لا تُحتمل. جلسوا على الحصير القديم، وكانت لينا بينهما تعدّ

النجوم، وكان ياسين يحاول أن يقنعها بأن الأضواء التي تراها ليست كلها نجومًا. وبعد قليل صمتت الصغيرة وسألت فجأة: «هل أمي وأبي يحب أحدهما الآخر؟».

سكت الاثنان. ثم قالت ريم بنبرتها المعتادة، نصف ساخرة ونصف جادة: «طبعًا. هما فقط لا يعرفان كيف يقولان ذلك».

قال ياسين: «هذا لا يصح. الحب ليس هو أن تعرف كيف تقول. هو أن تفعل».

التفتت إليه ريم: «لكن أمي تفعل كل شيء، ومع ذلك أبي حزين».

«لأن أبي يريد كلمات».

«وأمي تريد أن يرى أبي ما تفعله».

ضحكت لينا وقالت: «إذن كل واحد منهما ينتظر ما لا يعطيه الآخر». ثم أضافت بجدية طفلة تلقت نتيجة اختبار: «يجب أن يتبادلا».

نظر الأخوان إليها لحظة ثم انفجرا ضاحكين. كان ذلك أدق وصف سمعوه لما يحدث في بيتهم، وقد جاء من أصغرهم، وبكلمات لا تعرف أنها أصابت الهدف. وفي هذه الليلة، تحت سماء بلا كهرباء، كانوا أقرب ما يكونون إلى بعضهم، ثلاثة عوالم مختلفة التقت على حصير.

ولا تُقلل هذه اللحظات من خصوصية كل منهم، لكنها تذكرنا بأمر مهم، وهو أن الإخوة ليسوا مجرد شهود متوازين على حياة واحدة. يتحدثون ويتبادلون التفسيرات ويصححون بعضهم، وأحيانًا يكونون هم المصدر الأول الذي يتعلم منه كل واحد أن ما يشعر به ليس غريبًا. وقد يخفف هذا من وطأة بيت صعب، أو قد يزيد من تثبيت تفسير واحد، بحسب ما يقوله الإخوة لبعضهم. وكانت هذه الليلة من أجمل ما حدث بينهم.

ثلاثة عوالم

إذا وضعنا الثلاثة جنبًا إلى جنب، فسنجد أن كلًّا منهم يحمل جانبًا من حكاية واحدة. ريم تحمل الرغبة في الحب الكامل والخوف من فقدان استقلالها، وياسين يحمل الثقة في ما يمكن التحكم فيه والحذر مما لا يمكن، ولينا تحمل الانتباه إلى ما يشعر به الآخرون والصعوبة في الاستقرار على ما تشعر به هي. ويمكن أن نربط كلًّا من هذه السمات بشيء رآه في البيت، لكن الربط لا يكفي ولا يصح أن يكون الجواب الوحيد. فللعمر دور، فقد كانت ريم أكبرهم حين وقعت الأزمة وأقدرهم على الفهم والتمرد، وكان ياسين في مرحلة يبحث فيها عن الإتقان، وكانت لينا في عمر يعتمد فيه الطفل كليًا على استقرار من حوله. وللترتيب بين الإخوة دور أيضًا، وللعلاقة بكل واحد من الوالدين، وللأصدقاء والمعلمين والصدف.

وينبغي ألا يُفهم من هذا أن أحدهم عانى أكثر من الآخر. لا أحد يقيس الألم بالمسطرة، وكل منهم يحمل شيئًا يعرفه هو أكثر مما يعرفه غيره. فقد تبدو ريم في الظاهر الأكثر اضطرابًا، وياسين الأكثر ثباتًا، ولينا الأكثر حساسية، لكن هذه صور خارجية قد تخفي كثيرًا. وربما كان الأكثر هدوءًا هو الذي يتعلم أن يتجاهل ما يؤلمه، وربما كان الأكثر ضجيجًا هو الذي يطلب العون بالطريقة الوحيدة التي يعرفها.

والعبرة التي نخرج بها هنا أن الأبناء لا يرثون عن والديهم رسالة واحدة. يرثون مادة خام ومشاهد وأجواء، ويصنع كل واحد منهم منها معنى خاصًا به. وهذا ما يجعل التعميم خطرًا، فلا يمكن القول إن أبناء الأسر التي مرت بأزمة سيكونون كذلك أو كذلك. ما نستطيع قوله هو أن لكل طفل طريقته في فهم ما حوله، وأن الوالدين اللذين يريدان أن يعرفا أبناءهما حقًا عليهما أن يسألا كل واحد منهم عما يرى، لا أن يفترضا أنه يرى ما يرونه هم. وفي الفصل القادم ننتقل

إلى سـؤال آخـر: مـاذا يحـدث لهـؤلاء الأبنـاء حين يكـبرون ويـدخلون علاقـاتهم الخاصة؟

الفصل العاشر

العلاقات التي نحملها إلى سن الرشد

يدخل الإنسان علاقته العاطفية الأولى وهو يحمل حقيبة لا يتذكر أنه جهزها. في داخلها توقعات عما يحدث حين نحتاج إلى أحد، وافتراضات عما إذا كان الآخر سيبقى أو سيذهب، وطريقة مألوفة في التصرف حين يضيق الصدر. ولا تظهر محتويات هذه الحقيبة في الأسابيع الأولى، حين تغلب الحماسة على كل شيء. تظهر بعد أشهر، في أول خلاف حقيقي أو أول مرة يقول فيها الشريك إنه يحتاج إلى مساحة أو إلى قرب أكبر، وعندها يتصرف الإنسان بطريقة تفاجئه هو قبل غيره.

منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي، حاول باحثون، منهم سيندي هازان وفيليب شيفر، أن يروا إن كانت أنماط التعلق التي وصفها بولبي وإينسوورث عند الأطفال تظهر في علاقات الراشدين العاطفية. وانتهت أبحاث كثيرة بعدهما إلى أن لدى الراشدين ميولًا يمكن وصفها بالتعلق الآمن، أي الارتياح للقرب والاستقلال معًا، والتعلق القلق، أي الخوف من الهجر والحاجة إلى طمأنة متكررة، والتعلق التجنبي، أي الميل إلى الابتعاد حين يقترب الآخر أكثر مما ينبغي. وهذه الأنماط وصف لميول لا لأقدار. فهي تتفاوت بين الناس في الدرجة، وتتغير بحسب الشريك والمرحلة، وتتأثر بالتجارب اللاحقة وليس بالطفولة

وحدها. ويمكن لإنسان عاش طفولة صعبة أن يطور علاقات آمنة، وهو ما يسميه بعض الباحثين الأمان المكتسب.

لنفكر في ريم وهي في الخامسة والعشرين. هي في علاقة مع رجل صبور يحب أن يسمعها وأن يفعل لأجلها. في الأشهر الأولى تشعر بأن كل ما كانت تحلم به قد تحقق. ثم يأتي يوم يسألها فيه عن مشاعرها بوضوح، فتجيب بجملة ساخرة وتبتعد. وحين يتألم، تدافع عن نفسها وتقول إنها لا تحتمل الضغط. الواقع أنها تحتاج إلى سؤاله، وتخاف منه، وتغضب عليه لأنه جعلها تحتاج. وهذا مثال للانجذاب والنفور اللذين قد يتجاور فيهما الشوق والدفاع. ولا نستطيع أن نقول إنها تكرر أمها أو أباها، فهي لا تفعل ذلك تمامًا، إنما تحمل توقعًا بأن من يقترب قد يخيب أو يطالب، وبأنها يجب أن تحمي حريتها قبل أن تفقدها.

وفكر في ياسين وقد بلغ الثامنة والعشرين، ناجحًا في عمله ومتمكنًا في تخصصه، وعلى رأسه خطط كثيرة. قابل امرأة يحترمها ويستمتع بالحديث معها. وحين تصير العلاقة جادة، يجد نفسه يتحدث عن ضيق الوقت وعن مشاريعه، ويقترح تأجيل ما يجب تأجيله. ولا يرى في ذلك خوفًا، فهو يعتقد أنه يتصرف بنضج وأنه صريح معها. وربما يكون محقًا. لكن الأقرب أن في الأمر أكثر من ذلك، وأن ما يحميه هو أنه لا يضع نفسه في موقف لا يستطيع فيه أن يضبط النتيجة.

أما لينا، وهي في الثانية والعشرين، فتجد صعوبة في الاختلاف مع أصدقائها، وتكتب الرسالة الواحدة ثلاث مرات قبل أن ترسلها حتى لا تجرح أحدًا. وحين يتأخر أحدهم في الرد تقلب في ذهنها ما قالته له وتتساءل إن كانت أخطأت. وحين تدخل علاقة عاطفية، تكون أكثر الشريكات انتباهًا وتفهمًا، غير أنها لا تذكر ما يزعجها إلا بعد أن يتراكم. وهذا يجعل شريكها يظنها راضية ثم يفاجأ بغضب مفاجئ، فتنسحب إلى ما اعتادته، وتظن أن الخطأ فيها وحدها.

ثلاثة مشاهد من الحياة العاطفية

لنقترب أكثر من كل واحد منهم في لحظة محددة، فالتجريد يخفي ما تكشفه التفاصيل.

في مقهى صغير قرب الجامعة، جلست ريم أمام صديقها وهو يقول لها بهدوء: «لاحظت أنك حين أسألك عن شعورك تغيرين الموضوع». نظرت إلى فنجانها ثم قالت: «لأنني لا أحب أن أُستجوب». قال: «لم أكن أستجوبك. كنت أريد أن أعرفك». ساد صمت قصير، ثم أضافت بصوت أخفض: «أنا أيضًا أريد أن أعرفك، لكنني أخاف أنك إن عرفتني ستغير رأيك». كانت هذه أصدق جملة قالتها له منذ التقيا. ولم تدرك أنها قالتها إلا بعد أن خرجت من فمها. ابتسم وقال: «ربما أغير رأيي. وربما لا. دعينا نعرف». لم يكن في كلامه وعد، وكان فيه ما يكفي ليجعلها تبقى في مقعدها.

وفي مكتب صغير في مدينة أخرى، كان ياسين يقرأ رسالة من زميلة تقترح عليه أن يخرجا لتناول العشاء معًا، لا في إطار العمل. قرأها مرتين. كتب ردًا يقول فيه إنه مشغول هذا الأسبوع، ثم محاه. كتب آخر يقول إنه سيرى، ثم محاه. وفي النهاية كتب: «يسعدني ذلك. هل نتفق على يوم السبت؟». ضغط على زر الإرسال وهو يقول لنفسه إنه مجرد عشاء. لكنه وجد نفسه بعد قليل يعيد حساب ما عنده من ساعات، ويقول إن عليه أن يتأكد من أنها لن تتحول إلى شيء يقتطع من جدوله. وعندما أخبره قلبه، بطريقة غامضة، أنه سعيد، قرر أن يتجاهل ذلك مؤقتًا.

أما لينا فكانت تجلس مع صديقتها المقربة في الحديقة. قالت الصديقة بنبرة غاضبة إنها لم تعد تحتمل أن تُستبعد من الرحلة التي نظمتها المجموعة. استمعت لينا باهتمام، وأومأت، وقالت إنها تفهم. ثم قالت: «لكنني متأكدة أنهم لم يقصدوا». وفي داخلها كان صوت آخر يقول: «أنا أيضًا تألمت حين لم تدعني

إلى عيد ميلادك. لماذا لم أقل ذلك؟». لم تقله. فهي لا تريد أن تضيف عبئًا إلى يوم صديقتها، ولا أن تفتح بابًا قد لا تعرف كيف تغلقه. وبعد أن افترقتا، ظلت تفكر طوال المساء في الجملة التي لم تقلها، وتقنع نفسها بأنها لم تكن مهمة.

ثلاثة مشاهد صغيرة، وثلاث طرق مختلفة لتعامل المرء مع القرب. ومن الضروري هنا أن نضع هذه المشاهد في سياق النظرية. فقد أشار جون بولبي إلى أن الطفل يبني من خبراته المبكرة ما سماه نماذج العمل الداخلية، أي تصورات عامة عن نفسه وعن الآخرين وعن العلاقات. وهي ليست أفكارًا واعية بل توقعات تعمل في الخلفية، مثل: هل أنا شخص يستحق الاهتمام؟ وهل الآخرون موجودون حين أحتاجهم؟ وحين تكون الإجابات إيجابية في الغالب، ينشأ ما يسمى بالتعلق الآمن. وحين تكون متقلبة أو سلبية، تنشأ استراتيجيات للتكيف قد تكون مفيدة في الطفولة وغير ملائمة لاحقًا.

وقد درست ماري إينسوورث هذه الأنماط عند الرضّع بتجربة معروفة تسمى الموقف الغريب، تُترك فيها الأم والطفل في غرفة، ثم تغادر الأم قليلًا وتعود، وتُلاحظ ردود فعل الطفل. وكشفت عن أنماط متفاوتة، منها طفل يضطرب عند الغياب ويهدأ بسهولة عند العودة، وطفل لا يظهر قلقًا ظاهرًا ويتجنب الأم عند العودة، وطفل لا يهدأ بسرعة ويبدو متناقضًا بين طلب القرب ومقاومته. ولا يعني هذا أن الأطفال الثلاثة في قصتنا ينتمون إلى هذه الفئات، فهم أكبر من ذلك، والتجربة نفسها وُضعت لمرحلة الرضاعة. لكنها تساعدنا في أن نفهم أن للقرب لغة أولى تتشكل قبل الكلام.

وجاءت هازان وشيفر بعد ذلك بسنوات لتسألا: هل ما يحدث في علاقات الراشدين العاطفية يشبه ما يحدث بين الطفل ومن يرعاه؟ وصاغا استبيانًا بسيطًا عن مشاعر الناس تجاه شركائهم، ووجدا أن الإجابات تنقسم إلى أنماط شبيهة. ومنذ ذلك الحين تحولت هذه الفكرة إلى مجال بحثي واسع. لكن الباحثين اليوم

يفضلون الحديث عن أبعاد متدرجة لا عن فئات صلبة، فكل إنسان يقع بين قلق التعلق وتجنبه بدرجات متفاوتة، وقد يتحرك على هذا الطيف بتغير ظروفه.

هذه صور متخيلة، لكنها تشبه كثيرًا مما يحدث للناس. وفيها دلالة مهمة، وهي أن التأثر بالطفولة لا يظهر في صورة واحدة. بعض الناس يكرر ما رآه، وبعضهم يرفضه، وبعضهم يحوله. فمن يكرر ما رآه قد يكون ذلك بالفعل لأنه يألفه، فالإنسان يميل في كثير من الأحيان إلى ما يعرفه حتى لو كان مؤلمًا، لأن المعروف مفهوم وإن لم يكن مريحًا. ومن يرفضه قد يتحول إلى النقيض المطلق، فيعتقد من رأى أهله يتجادلون أن الخلاف دليل فشل فيتجنبه كليًا. وكلا الأمرين يبقى فيهما أثر الماضي، لأن الرفض القاطع هو أيضًا طريقة في أن نكون مرتبطين بما نرفضه.

أما التحول فهو الأصعب والأكثر ندرة. ويقتضي أن يرى الإنسان الأنماط التي تحركه، دون أن يلوم نفسه أو والديه، وأن يختار في كل مرة بوعي ما يريد أن يفعله. يحتاج إلى أن يلاحظ لحظة الانسحاب قبل أن يقع فيها، وأن يقول لشريكه بصراحة ما يحدث بدل أن يتصرف دون تفسير. ويحتاج غالبًا إلى علاقة آمنة، أو إلى مرشد أو معالج، يجرب معه شكلًا جديدًا من القرب لا يتحول إلى ما كان عليه. وهذا ليس سريعًا ولا مضمونًا، لكنه ممكن، وهناك أبحاث كثيرة تدعم أن العلاقات الداعمة في الكبر تغير فعلًا من ميول التعلق.

لقاء بعد سنوات

في عيد الأضحى من تلك السنة، اجتمع أفراد الأسرة كلهم في البيت. كانت ريم قد جاءت من مدينتها الجامعية، وياسين من تدريبه، ولينا ما زالت تدرس. جلس الجميع حول مائدة الغداء، وبعد أن انتهوا انصرف الكبار إلى الشاي، وبقي الأخوة الثلاثة في المطبخ يغسلون الأطباق.

قالت ريم وهي تجفف كوبًا: «هل لاحظتم أن أمي صارت تقول لأبي شكرًا بصوت عال؟».

قال ياسين دون أن يرفع عينه عن الصحن: «لاحظت. وأبي صار يسألها كيف كان يومها قبل أن يحكي عن يومه».

نظرت لينا من أحدهما إلى الآخر بحذر: «هل يعني هذا أنهما بخير؟».

قالت ريم: «يعني أنهما يحاولان». ثم أضافت بلهجة أخف: «وهذا أكثر مما فعلنا نحن».

ضحكوا جميعًا، لكن الضحكة حملت شيئًا آخر. فقد كانت لحظة نادرة يقرّ فيها الثلاثة بأنهم يحملون من ذلك البيت ما لم يحلّوه بعد. ولم يقل أحد المزيد، لأن بعض الأمور تُفهم من نظرة. ثم سألت لينا، وهي تضع آخر طبق في مكانه: «هل تظنان أننا سنكون مثلهما؟».

لم يجب أحد فورًا. ثم قال ياسين: «أظن أننا سنكون مثلنا نحن».

ولم يكن هذا الجواب شعارًا. كان تقديرًا حذرًا لشيء صحيح، وهو أن ما ورثه كل منهم ليس مصيرًا، بل مادة يعمل عليها.

وفي هذا بشارة للأبناء الثلاثة ولكل من يشبههم. فليس ما رأوه في بيتهم قدرًا مكتوبًا. يمكن لريم أن تتعلم أن القرب لا يعني الذوبان، ويمكن لياسين أن يكتشف أن الوقت الذي يمنحه لعلاقة لا يُسرق من أحلامه، ويمكن للينا أن تتدرب على أن تقول ما تريد دون أن تعتذر عنه. لكن هذا كله يحتاج إلى وعي، والوعي يحتاج إلى من يجعل الحديث عنه آمنًا. ومن الأسئلة التي ستشغلنا في الفصل القادم: ما الذي يمكن أن نقوله عن الوالدين أنفسهما؟ هل كانا مخطئين؟ وإن كان الجواب لا، فماذا حدث؟

الفصل الحادي عشر
لم يكن أحدهما عدوًّا

من الإغراء الطبيعي، حين نقرأ قصة زواج متعثر، أن نبحث عمن نقف في صفه. ربما نقول إن فاطمة قاسية ولو لم تقصد، أو إن كمال لا ينضج ولو بدا ظريفًا. وهذا الميل مفهوم، فهو يعطينا ترتيبًا مريحًا للأحداث، وفي الترتيب راحة. غير أن الكتاب منذ بدايته رفض أن يقدم هذا الراحة، لسبب بسيط، هو أن الحقيقة أكثر تعقيدًا من أن تحتمل متهمًا واحدًا.

لنبدأ بما يحسب لكل منهما. فاطمة ربت ثلاثة أبناء بإخلاص، وأدارت بيتًا بصبر، وكانت صادقة في ما تقول وفي ما تفعل، وأحبت زوجها بالطريقة التي تعرفها. وكمال كان أبًا حنونًا وزوجًا لطيفًا، وأضحك بيته في أيام كثيرة كان يمكن أن تكون ثقيلة، وطلب ما يحتاج إليه بصدق، ولم يكن في يوم من الأيام عنيفًا أو مهينًا. وهذه ليست جوائز ترضية. إنها الحقيقة التي تجعل ما سيأتي أصعب، لأنها تعني أن الخلل لم يكن في الأخلاق ولا في الحب.

ثم لنذكر ما يؤخذ على كل منهما، بالقدر نفسه من الإنصاف. فاطمة لم تتعلم أن تسمع الحاجة غير المعلنة، وأن تتعامل مع الشعور بوصفه معلومة تستحق الانتباه وليس عقبة تنتظر الحل. وكانت صراحتها تتجاوز أحيانًا حدود العناية، وكان دفاعها عن جهدها يتحول إلى إغلاق للحوار. وكمال لم يتعلم أن يشارك

همومه مثلما يطلب مشاركة الآخر، ولا أن يضبط مزاحه حين يجرح، وكان يطلب الطمأنة بأسلوب يجعلها صعبة. هذه وقائع وليست اتهامات. وكل منها يمكن تعديله إذا رآه صاحبه.

وهنا نصل إلى مفهوم النضج العاطفي، الذي كثيرًا ما يُستعمل كأنه حكم أخلاقي. والمقصود به هنا شيء محدد، وهو القدرة على ملاحظة ما نشعر به وتسميته، وتحمل أثر أفعالنا على الآخرين دون أن ندافع عن أنفسنا فورًا، والتعبير عن حاجاتنا بوضوح من غير أن نحمل الآخر ذنب ما لا يعلمه، وتحمل أن الشريك إنسان آخر له مشاعر مستقلة. وليس من يملك هذه القدرات كاملة، وكلنا نملكها بدرجات تتفاوت بحسب الموقف والتعب والتاريخ. ولا يعني نقص النضج العاطفي في موقف معين أن صاحبه سيئ. يعني أن عنده ما يتعلمه.

وأما التوافق فهو شيء مختلف عن النضج وعن الحب وعن الأخلاق. التوافق هو مدى تقاطع حاجات شخصين وطرق تعبيرهما بحيث يشعر كل منهما، في أغلب الأوقات، بأنه مرئي ومسموع. وقد يكون شخصان ناضجين وطيبين ويحب أحدهما الآخر، ويعانيان مع ذلك لأن أحدهما يحتاج إلى ما لا يعرف الآخر كيف يقدمه بسهولة. وهذا لا يعني أن العلاقة محكوم عليها. يعني أن عليها أن تبذل جهدًا أكبر من المعتاد، وأن تتعلم لغة لم تأتِ بالفطرة. وقد يكون هذا الجهد مجزيًا للطرفين، وقد يبدو لأحدهما فوق ما يطيق، وهذا قرار يعود إليهما.

ويجب أن نفرق، حتى لا يُساء فهم هذه الأفكار، بين ثلاثة أنواع من الصعوبات. الأولى الاختلافات العادية، كأن يحتاج أحدهما إلى الكلام والآخر إلى الهدوء، وهذه موجودة في كل علاقة وقابلة للتفاوض. الثانية الإهمال العاطفي المستمر، حين يتجاهل أحد الطرفين حاجات الآخر الأساسية بصورة متكررة رغم أنه يعرفها، وهذا أخطر وأحق بالانتباه. والثالثة الخلاف الضار فعلًا، من إهانة وتهديد وسيطرة وعنف، وهذا لا يندرج تحت الاختلاف ولا يُعالج بتحسين التواصل وحده، ومن يعيشه يستحق الحماية والمساعدة قبل أي تحليل. وما حدث بين فاطمة

وكمال ينتمي، بحسب ما عرضناه، إلى النوع الأول في معظمه، مع لحظات اقتربت فيها العلاقة من حافة النوع الثاني. ومن الضروري ألا نخلط بين هذه الأنواع، لأن الخلط يؤدي إلى خطأين متعاكسين، فإما أن نعد الأزمات الجدية خلافات عابرة فنتأخر في الاعتراف بها، وإما أن نعد الاختلافات العادية إساءات فنهدم ما يمكن إصلاحه.

حين يُبطل الإنصاف الشعور

من المفيد أن ننظر عن قرب إلى ما يسميه علماء النفس إبطال المشاعر، وكيف يتجلى في ما يبدو إنصافًا أو عقلانية. ففي أحد الأمسيات، عاد كمال متعبًا من العمل وجلس على الأريكة. سألته فاطمة عن يومه.

«عادي. مدير القسم غيّر الخطة مرة أخرى».

«وماذا قلت له؟».

«لا شيء. هذا عمله». ثم أضاف بنبرة متعبة: «أشعر أحيانًا أن أحدًا لا يرى ما أبذله».

أجابت فاطمة بمنطقها المعتاد: «لكنك تعرف أن الخطط تتغير. هذا ما يحدث في كل شركة. لا تأخذ الأمر شخصيًا».

كانت محقة. وكان كلامها منطقيًا ومفيدًا في معناه. غير أن كمال لم يقل ما قاله ليسمع نصيحة. قال إنه يشعر أن أحدًا لا يراه. وجاء الرد على الفكرة لا على الشعور. شعر كمال بشيء يشبه الاختناق الخفيف، فقال: «معك حق». وانتقل إلى حديث آخر.

لو سُئلت فاطمة عما حدث، لقالت إنها أجابته بما ينفعه. ولو سُئل كمال لقال إنه لم يشعر بخير. ومن هنا يتضح تعريف الإبطال. فهو ليس بالضرورة إنكارًا صريحًا للمشاعر أو سخرية منها. قد يكون تصحيحًا منطقيًا، أو تقليلًا من الحجم،

أو انتقالًا سريعًا إلى الحل، أو طمأنة سابقة لأوانها. وكلها تؤدي إلى الرسالة الضمنية نفسها: ما تشعر به لا يستحق التوقف عنده.

وقد درست الباحثة مارشا لينهان، صاحبة العلاج الجدلي السلوكي، هذه الظاهرة بشكل موسع. وترى أن الإبطال المتكرر في البيئات القريبة من الشخص يمكن أن يعلمه أن يشك في مشاعره وأن يخجل منها أو يخفيها. وليس المقصود أن كل من يقدم نصيحة مبطِل للمشاعر، فالنصيحة قد تكون قيمة جدًا بعد أن يشعر صاحب الشأن أنه مسموع. الفرق في الترتيب. أن نبدأ بقولنا: «يبدو يومًا متعبًا»، ثم ننتقل إلى الحلول إن طُلبت. وهذا ما يسميه بعض المختصين التصديق، أي الاعتراف بأن مشاعر الشخص مفهومة في سياقها، دون أن يعني ذلك الموافقة على كل ما يترتب عليها.

ويبدو الأمر عند فاطمة سهلًا، فهي لم تتعلم أن للمشاعر مكانًا في الحوار. لكن عند كمال أيضًا ما يستحق التوقف، فهو لم يتعلم أن يقول بوضوح ما يحتاجه. كان يمكنه أن يقول: «لا أريد حلًا، أريد فقط أن تسمعيني». وهذه جملة قد تبدو بسيطة، لكنها تحتاج إلى وعي بالاحتياج وإلى أمان كاف لقولها. وفي كثير من الأحيان لا يتوفر الاثنان معًا.

صوتان في ليلة واحدة

في تلك الليلة بعينها، التي عاد فيها كمال متعبًا، كان في البيت صوتان يعملان في الظلام.

كانت فاطمة مستلقية على جنبها تنظر إلى الجدار. «لماذا لا يفهم أنني أحاول؟ لقد سألته عن يومه، ونصحته بما أعرفه، وأعددت له الطعام الذي يحبه. ماذا يريد؟ هل يريد مني أن أبكي معه كلما غضب مديره؟ لا أعرف كيف أفعل ذلك. لا أعرف كيف يُقال هذا الكلام الذي ينتظره. أنا لم أسمعه في بيتي. هل

يريد مني أن أكون شخصًا آخر؟». وبعد لحظة ثقيلة: «وربما أنا لا أعرف ما يريده فعلًا لأنني لم أسأله».

وكان كمال مستلقيًا على ظهره ينظر إلى السقف. «لم يكن عليّ أن أقول ما قلته. كانت تحاول. أعرف أنها تحاول. لكنني لا أستطيع أن أطلب منها أن تفهمني دون أن أشرح، ولا أستطيع أن أشرح لأنني لا أعرف ما أقوله. وماذا لو قلت لها إنني أشعر أن أحدًا لا يراني فنظرت إليّ كأنني أطلب المستحيل؟ الأفضل أن أنام». ثم، وهو يغمض عينيه: «ما زلت أحبها. هذا ما لا أعرف كيف أقوله».

رجل وامرأة في سرير واحد، يحمل كل منهما جملة ناقصة، ويعتقد أن الآخر هو من يحتاج إلى أن يبدأ. هذا هو المشهد الذي نعنيه حين نقول إن أحدهما لم يكن العدو. لم يكن في الغرفة عدو. كان فيها اثنان يتألمان بالطريقة نفسها تقريبًا، ويتألم كل منهما وهو يظن أن ألمه خاص به وحده.

ويبقى أن نعيد النظر في فكرة النوايا الحسنة. فهي تفسر لماذا استمر الزوجان في العطاء رغم الألم، ولماذا لم يكره أحدهما الآخر. لكنها لا تكفي، لأن الأثر لا يقل بتغير النية. إذا دُسّ قدم أحدهم على قدمك دون قصد، فالألم موجود، وأنت محق في أن تقول إنه يؤلمك. والاعتذار الذي يقتصر على شرح النية لا يلمس الأثر. أما الاعتذار الذي يقول إنني أرى أن ما قلته آلمك، وأريد ألا أكرره، فيشفي أكثر من أي تفسير. ولم يتعلم الوالدان هذا النوع من الاعتذار، لأنه لم يكن في كتاب أي منهما الأول.

اعتذار على مرحلتين

لنتخيل الآن ما كان يمكن أن يحدث في مساء ما لو أن أحدهما عرف كيف يعتذر. ليلة سبت، بعد زيارة عائلية، ركبا السيارة صامتين. كان كمال قد قال قبل

ساعة، أمام أقاربه، إن فاطمة «لا تثق بأحد إلا بنفسها». ضحك الجميع، ولم تضحك هي.

قال كمال أخيرًا، وهو يحدق في الطريق: «يبدو أنك غاضبة».

«لست غاضبة».

«لكنك لا تتكلمين».

قالت: «لا أريد أن أتكلم الآن». وكانت صادقة. لكن في الصمت الذي أعقب كلامها، استقر شعور مألوف في صدر كمال، شعور بأنه عاجز مرة أخرى عن إصلاح ما لا يعرف كيف أفسده. وتذكر الجملة التي قالها، وأدرك أنها ربما لم تكن مزحة بريئة كما بدت.

كان أمامه خياران. أن يقول: «لم أقصد شيئًا، كنت أمزح». وهذا ما قاله في مثل هذه المواقف مئة مرة. أو أن يقول شيئًا مختلفًا. بعد دقيقة طويلة، اختار الثاني، لكنه لم يُحسنه من المرة الأولى. قال: «ربما ما قلته أمام الجميع لم يكن لطيفًا. أنا آسف».

نظرت إليه فاطمة نظرة قصيرة، فيها شيء من الدهشة. لكنها لم تجب مباشرة. بعد لحظة قالت: «أنا لا أشك في أنك لم تقصد». وكان في صوتها ما يوحي بأن هناك جملة ثانية لم تُقَل. ثم أضافت: «لكنني شعرت كأنني لا أُرى».

هنا بالضبط كان يمكن لكمال أن يعود إلى دفاعه المعتاد. ولاحظ هو ذلك في نفسه. قال بدلًا منه: «أفهم».

لم يحل هذا كل شيء. ولم تتبدل علاقتهما في تلك الليلة. لكنه شكّل ما يمكن أن نسميه اعتذارًا من مرحلتين، الأولى تعترف بأن الفعل أثر، والثانية تستقبل ما يقوله الآخر دون أن تحاول تصحيحه. وهو ما يختلف جذريًا عن الاعتذار الذي يشرح النية ثم يطلب من الطرف الآخر أن يتجاوز. وفي هذا المشهد

المتخيل، لم يقل كمال شيئًا استثنائيًا. قال جملتين. لكن الجملتين كانتا كافيتين لأن يُحدثا فرقًا.

لا نعرف إن كان هذا المشهد قد حدث فعلًا في بيتنا. لكننا نعرف أنه كان ممكنًا، وأن ما منع حدوثه لم يكن غياب الحب، بل غياب هذا النوع الدقيق من المهارة. وهذا ما يجعل القصة، رغم حزنها، أقل ظلمًا مما تبدو.

وأخيرًا، قد يكون من المفيد أن نسأل عن العلاقة بين كونهما والدين جيدين وكونهما شريكين متوافقين. لا يقوم أي منهما مقام الآخر. يستطيع الزوجان أن يضعا أبناءهما في المقام الأول وأن يقوما بكل ما يجب نحوهم، وأن يتعثرا مع ذلك في ما بينهما. والحقيقة التي لا ينبغي أن تُنسى أن الأبناء لا يتأثرون بما يفعله الوالدان لهم وحدهم، بل بما يعيشونه في وجودهما معًا. وهذا ما يجعل الجواب عن سؤال العلاقة مهمًا لأسباب تتجاوز الزوجين. وفي الفصل الأخير من المتن، نتحدث عما يمكن فعله حيال ذلك.

الفصل الثاني عشر
تعلّم ترجمة الحب

في مساء من الخريف، بعد سنوات من الأزمة، قالت فاطمة لكمال جملة لم تقلها من قبل. كانا يغسلان الأطباق معًا بعد عشاء هادئ، وكان كمال يحكي عن يوم متعب في العمل بنبرة مرحة كعادته، فتوقفت عن الغسل ونظرت إليه وقالت: أنت تحكي لي هذا بضحك، لكن أظنه أتعبك فعلًا. فسكت لحظة، ثم قال بصوت مختلف: نعم، أتعبني. لم يحدث بعد ذلك شيء استثنائي، ولم يتبادلا عبارات كبيرة. لكنه عرف في ذلك المساء أن أحدًا رأى ما وراء النكتة، وعرفت هي أن ما فعلته، وهو جملة واحدة، كان في وسعها منذ سنوات.

لا نعرف ما الذي غيّر الأمر. ربما كانت قراءة، أو حديثًا مع صديقة، أو تعبًا جعلها أكثر انتباهًا. المهم أن الترجمة ممكنة، وأنها تبدأ في الغالب بشيء صغير وليس بقرار كبير. فما نسميه تعلّم لغة الشريك لا يعني أن نتخلى عن لغتنا ونصبح أشخاصًا آخرين. يعني أن نتعلم عددًا قليلًا من العبارات الأساسية التي تجعل الآخر يشعر بأننا نفهمه، مثل ما يتعلمه المسافر قبل أن يزور بلدًا لا يعرف لغته. ولا ينتظر من أحد أن يتقنها كأهلها.

والخطوة الأولى هي تسمية ما يحدث. حين يدرك الزوجان أن أحدهما يحب بالكلام والآخر بالفعل، أو أن أحدهما يحتاج إلى الحديث بعد الخلاف والآخر

يحتاج إلى الهدوء أولًا، يتحول الأمر من اتهام متبادل إلى معلومة مشتركة. تقول فاطمة لكمال إنها تحتاج إلى وقت قصير تهدأ فيه قبل أن تتحدث، وإنها ستعود بعد ساعة ولن تهرب، فيعرف هو أن غيابها المؤقت ليس رفضًا. ويقول كمال لفاطمة إنه يحتاج أحيانًا إلى أن يسمع جملة واحدة دافئة، وإن ذلك لا يعني أنها مقصرة، فتفهم هي أن الطلب لا يحمل لومًا. ويلزم لذلك بعض الشجاعة، لأن قول الحاجة بصراحة يكشف صاحبها، لكن الصراحة المهذبة أرحم من الانتظار الصامت.

والخطوة الثانية هي طلب الشيء المحدد. كثيرًا ما نقول لشريكنا إننا نريد مزيدًا من الاهتمام أو الاحترام أو القرب، وهي كلمات كبيرة يصعب ترجمتها إلى سلوك. أما أن نقول إننا نحب أن نسمع كلمة تقدير بعد العشاء، أو أن نجد من يسأل عن أحوالنا حين نعود، أو أن نتشارك في ترتيب المنزل مرة في الأسبوع، فهي طلبات يمكن تنفيذها وملاحظة تنفيذها. وفي المقابل يحتاج من يسمع الطلب إلى أن يستقبله على أنه معلومة، لا إدانة، فيجيب بما يستطيع وبما لا يستطيع.

والخطوة الثالثة هي الانتباه إلى أثر الكلمات. يحتاج كمال إلى أن يلاحظ متى يتحول مزاحه إلى تقليل من شأن فاطمة، وأن يكون مستعدًا لأن يقول: آسف، لم أقصد أن أحرجك. وتحتاج فاطمة إلى أن تلاحظ متى تتحول صراحتها إلى حكم، وأن تتعلم أن تبدأ أحيانًا بما أعجبها قبل ما أزعجها، لا لتجامل، بل لأن الطريقة التي تُقال بها الحقيقة جزء من الحقيقة. ولا يعني هذا إخفاء الرأي. يعني اختيار اللحظة والنبرة بما يجعل الرأي مسموعًا. وهما بذلك لا يغيران شخصيتيهما، بل يوسعان ما يستطيعان فعله.

ويجب هنا أن نقف عند نقطة كثيرًا ما تُهمل في الحديث عن التواصل، وهي أن فهم احتياج الآخر لا يعني التخلي عن احتياجنا. فمن يتعلم لغة شريكه قد يظن أنه ينبغي له أن يلبي كل ما يطلب، وهذا طريق إلى الإرهاق والاستياء

الجديد. من حق فاطمة أن تقول إنها لا تستطيع أن تقدم عبارات الغزل بالطريقة التي يتخيلها كمال دون أن تشعر بالتصنع، وإنها ستجد طريقتها الخاصة. ومن حق كمال أن يقول إنه لا يستطيع أن يتخلى عن المزاح تمامًا، فهو جزء من هويته وما يحميه من الحزن. والحدود الصحية هي التي تقول بوضوح ما أستطيع وما لا أستطيع، دون أن تتحول إلى جدار. والعلاقة التي تتسع لهذه الحدود أقوى من علاقة يخفي فيها كل طرف ما يضايقه خوفًا من أن يغضب الآخر.

والأمر لا يخلو من أوقات يكون فيها الجهد الداخلي غير كاف. حين تكون الجروح قديمة، أو يتكرر النمط نفسه رغم المحاولات، أو يشعر أحد الزوجين بأنه يتحدث ولا يُسمع، فقد يفيد أن يستعين الزوجان بمختص في العلاقات، لا لأن شيئًا فيهما معطوب، بل لأن وجود طرف ثالث محايد يستطيع أن يرى ما لا يريانه، ويُنصت إلى كل منهما دون أن يضطر إلى الدفاع عن نفسه. وقد تبين من الأبحاث في هذا المجال أن عددًا من أنواع العلاج الزوجي يحقق نتائج جيدة لدى كثير من الأزواج، دون أن يعني هذا أن الطريقة تنجح مع الجميع، فالأمر يعتمد على الأسباب والاستعداد والمعالج.

الحوار عن الحوار

لنعد إلى المطبخ، وإلى ما قد يحدث حين يقرر زوجان أن يتحدثا في ما لم يتحدثا فيه من قبل. جلست فاطمة وكمال إلى الطاولة في مساء هادئ بعد أن نام الأولاد. وضعت أمامها كوب شاي، وأمامه كوبًا آخر، ثم بقيا لحظة طويلة بلا كلام.

قالت فاطمة أولًا، وكانت جملتها مُعدّة سلفًا في رأسها: «أريد أن أقول لك شيئًا، وأريدك أن تسمعه حتى النهاية».

أومأ كمال.

«أعرف أنني أحيانًا أرد عليك بجفاف حين تقول لي شيئًا عن مشاعرك. وأعرف أنك تتألم من ذلك. لا أقول هذا لأن أحدًا قاله لي. أقوله لأنني لاحظت أنك تتوقف عن الكلام حين أجيب هكذا». ثم أخذت نفسًا: «لا أعرف كيف أفعل ذلك بشكل مختلف. أريد أن أتعلم».

لم يكن كمال مستعدًا لهذه الجملة. نظر إلى كوبه، ثم قال بصوت مختلف عن صوته الذي يعرفه الجميع: «وأنا لا أقول لك ما يزعجني حقًا. أقول نكتة ثم أسكت. وأنتظر أن تفهمي. لكنك لا تستطيعين أن تفهمي ما لا أقوله».

ساد صمت قصير، لكنه لم يكن صمتًا ثقيلًا. كان أقرب إلى ما يحدث بعد أن يتنفس إنسان بعمق بعد جهد طويل.

قالت فاطمة: «إذن سأحاول أن أسأل بدل أن أفترض. وأنت تحاول أن تقول بدل أن تنتظر».

قال: «اتفقنا. وإذا نسيت، ذكّريني بلطف».

قالت: «وإذا ذكّرتك ونسيت أنا، ذكّرني أنت».

ضحكا. لم يكن في الاتفاق ما يشبه معاهدة. كان شيئًا أبسط وأكثر تواضعًا، وهو الاعتراف بأن لكل منهما نصيبًا، وأن الإصلاح لا يتطلب إدانة. وما جعل هذا الحوار ممكنًا هو أنه لم يبدأ بقائمة اتهامات، بل بجملة تصف ما يلاحظه المتحدث في نفسه أولًا. فعندما يقول أحدنا: أنا أفعل كذا وأعرف أنه يؤلمك، فإنه يفتح الباب لأن يقول الآخر ما يشبهه، بدل أن يغلق الأبواب بقوله: أنت تفعل كذا.

وينبغي أن نشير إلى ما قد يعوق مثل هذا الحوار في الواقع. فقد لا يكون الوقت مناسبًا، وقد يكون أحد الطرفين متعبًا، وقد يتحول الحديث إلى جدال إن لم يتنبه الطرفان. ومن المفيد في هذه الحالات أن يتفقا على إشارة بسيطة يعلنان بها أنهما بحاجة إلى توقف قصير، على ألا يكون التوقف انسحابًا، بل وعدًا

بالعودة بعد قليل. وهذا يعالج المشكلة التي ذكرناها قبل صفحات، حين ينسحب كل طرف بطريقته فيفهم الآخر الانسحاب غيابًا.

ويبقى أن نقول إن الترجمة لا تمنع الخطأ. سيظل فاطمة وكمال يخطئان، وسيعود المفتاح ليضيع، وسيقول أحدهما جملة في غير وقتها. الفرق أنهما قد يستطيعان أن يتوقفا بعدها ويسألا ما الذي حدث، وأن يعودا إلى بعضهما قبل أن يتراكم شيء. وهذا الفرق قد يبدو صغيرًا، لكنه هو ما يفصل بين بيت يتراكم فيه الصمت وبيت يمكن فيه الكلام. وللأبناء الذين يشاهدون ذلك، مهما كانت أعمارهم، قيمة كبيرة، لأنهم يتعلمون أن الخلاف يمكن أن ينتهي بفهم لا بصمت.

الخاتمة

ما لا ينبغي أن يُضطر الأطفال إلى فهمه

لم يكن على لينا أن تفهم لماذا سكت أبوها ذلك المساء. لم يكن عليها أن تحسب الفرق بين نبرتي والديها، ولا أن تقرر هل الصمت في الصالة علامة غضب أم تعب أم سلام. كان يكفي أن يقول لها أحد بكلمات بسيطة إن الأمر لا يخصها، وإن الكبار يتحدثون في ما بينهم وسينتهون، وإنها بخير وإن البيت بخير. هذه الجملة القصيرة هي ما كان ينقصها، وهي ما ينقص أطفالًا كثيرين يملأون بخيالهم ما لا يملؤه الكبار بالكلام.

هذا ما أردت أن أقوله بعد كل هذه الصفحات. ليست المسألة أن يكون الوالدان زوجين مثاليين، فلا أحد كذلك. وليست أن يبقيا معًا مهما كان الثمن، ولا أن ينفصلا عند أول عقبة. المسألة أن يدرك الراشدان أن البيت الذي يعيش فيه أبناؤهما هو الذي يصنعانه كل يوم بما يقولانه وما يسكتان عنه، وأن الطفل يقرأ هذا البيت بدقة تفوق ما نتخيل، ثم يبني عليه تصوره عن نفسه وعن الآخرين وعن معنى أن يحب إنسانٌ إنسانًا.

والمسؤولية هنا ليست ذنبًا. فاطمة وكمال لم يخطئا لأنهما أرادا لأولادهما شرًّا، بل لأنهما لم يعرفا كيف يقولان ما كان ينبغي أن يُقال. وهذا يصدق على كثير من الآباء والأمهات. لكن المسؤولية تبقى، لأن من يملك القدرة على تغيير

جو البيت يملك أيضًا واجب النظر فيه. وما يُطلب منه أقل مما يظن. أن يوضح لأبنائه حين يتغير الجو أنهم ليسوا السبب. أن يعتذر أمامهم حين يخطئ بحق شريكه، فيرون أن الاعتذار ممكن. أن يترك لهم أن يعبروا عما يحسّون به دون أن يسارع إلى إسكاتهم. أن يعرف أن طفله ليس وسيطًا ولا حليفًا ولا مضحكًا رسميًا. وأن يقول، حين يطول الصمت، ما يحدث بجملة بسيطة مناسبة لعمره.

وليس على الأبناء، مهما بلغوا، أن يصلحوا ما بين والديهم. وليس عليهم أن يفهموا ما لم يشرحه لهم أحد، ولا أن يختاروا بين طرفين يحبونهما. إذا كبروا ووجدوا في أنفسهم آثارًا من ذلك، فليس هذا خللًا فيهم، وليس لزامًا أن يبقى. يمكن أن يتعلموا من جديد، وأن يختاروا من يشاركونهم حياتهم بوعي أكبر، وأن يبنوا بيوتًا يقولون فيها ما لم يُقل لهم. وهذا عمل صعب، لكنه أقل صعوبة حين يعرف الإنسان من أين يأتي ما يحمله.

السؤال الذي أُجيب عنه

في مساء من تلك السنة، كانت فاطمة تقرأ على الأريكة حين دخل كمال الغرفة وجلس بجانبها دون أن يتكلم. وكان قد مرّ على آخر حديث بينهما نصف ساعة، حديث قصير عن موعد صيانة السيارة اختلفا حوله، ثم سكتا. تبعته لينا بعد دقيقة، ووقفت عند الباب تنظر إلى وجهيهما واحدًا بعد الآخر.

قالت بصوت خافت: «هل أنتما غاضبان؟».

رفعت فاطمة رأسها عن الكتاب. كان الرد المعتاد، الذي قالته مئة مرة، على طرف لسانها: «لا شيء يا حبيبتي». لكنها توقفت. نظرت إلى كمال، فرأته ينظر إليها كأنه يسألها السؤال نفسه. وقالت: «تعالي».

جلست لينا بين الاثنين على حافة الأريكة.

«اختلفنا قبل قليل في أمر صغير، ولسنا متفقين تمامًا بعد»، قالت فاطمة. «لكن هذا لا يعني أن أحدًا غاضب منك، ولا أن شيئًا خطيرًا يحدث. نحن نفكر. وسنتكلم أكثر بعد قليل».

أضاف كمال: «وإن حدث أن بدا أحدنا صامتًا، فقد يكون متعبًا فقط، لا غاضبًا. وإن لم تعرفي، يمكنك أن تسألي مرة أخرى، ولن ننزعج».

نظرت لينا إلى أبيها ثم إلى أمها. لم تقل شيئًا فورًا. ثم سألت: «حتى لو سألتُ ألف مرة؟».

ضحكت فاطمة، وكانت ضحكة حقيقية: «حتى ألف مرة. لكن ربما نجيبك في العاشرة بكلمة واحدة: لا».

ضحكت لينا. وفي تلك الليلة نامت دون أن تنظر إلى باب غرفة والديها لتتأكد من أن الضوء مضاء.

لا نقول إن هذا المشهد حل كل شيء. فمن الأرجح أن لينا ستسأل مرات أخرى، وأن الصمت سيعود إلى البيت في أيام مختلفة. لكن في ذلك المساء حدث ما لم يحدث من قبل. أُجيب عن السؤال بصدق يناسب عمرها، وبحضور الاثنين معًا. ولم تحتج لينا أن تضحك أحدًا أو أن تعتذر عن شيء. كان الصمت، حين جاء، هو ما قد تتمناه كل أسرة: صمت لا يحتاج أحد فيه إلى أن يخمّن.

في ختام قصة هذا البيت، لا نعرف ماذا سيحدث. قد يتعلم فاطمة وكمال لغة بعضهما، وقد يبقيان على ما هما عليه مع قدر من الدفء، وقد يقرران يومًا قرارًا آخر. ما نعرفه أن لغة كل منهما كانت تحمل حبًا حقيقيًا، وأن الحب الذي لا يُترجم يظل حبًا، لكنه لا يصل. وما نعرفه أن أطفالهما سيحملون من هذا البيت أشياء جميلة وأشياء متعبة، وأن ما يستطيع الوالدان فعله هو أن يزيدا من الأولى ما استطاعا، وأن يخففا من الثانية بالصدق والانتباه.

الأطفال لا يحتاجون إلى والـدين كـاملين. يحتـاجون إلى راشـدين يتحملان مسؤولية الجو الذي يصنعانه، ويقولان لهم حين يكون الجو ثقيلًا إن الثقل ليس منهم ولا عليهم. فإذا فعلا ذلك، صار الصمت في بيتهم، حين يأتي، مجرد صمت.